مكتبة
Telegram
Network
2020

Europeana

أوروبيانا

مختصر تاريخ القرن العشرين

باتريك أورشادنيك ترجمة: د. خالد البلتاجي

مكتبة

Telegram Network

2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل كتاب:

(أوروبيانا مختصر تاريخ القرن العشرين**)**

لـ «باتريك أورشادنيك**»**

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

تنسيق

ماجدة علي علي

أوروبيانا مختصر تاريـخ القرن العشرين

EUROPEANA

A BRIEF HISTORY OF THE TWENTIETH CENTURY

باتريك أورشادنيك

ترجمة د. خالد البلتاجي

الطبعة الأولى: 2014

رقم الإيداع: 22421/2013

الترقيم الدولي:978-977-319-197-9

العربى للنشر والتوزيـع

60 شارع القصر العيني 11451 - - القاهرة

ت 27954529 - 27921943

فاكس 27947566

email: info@alarabipublishing.com.eg

www.alarabipublishing.com.eg

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

ابتكر الانجليز الدبابات

كان الأمريكيون على متن السفينة نورماندي عام 1944رجالًا أقوياء، بلغ متوسط طول الرجل منهم 173 سنتيمترًا. ولو أنهم اصطفوا أمام السفينة، وقسناهم من رأسهم حتى أخمص أقدامهم، لكان إجمالي طول الطابور 38 كيلومترًا. كان الألمان كذلك رجالًا أقوياء البنية. وأقواهم على الإطلاق كان القناصة السنغاليين، وذلك في الحرب العالمية الأولى. كان طول الواحد منهم 176 سنتيمترًا، لذلك وضعوهم في الصفوف الأمامية، حتى يرهبوا بهم الجنود الألمان. يقال أن الناس أثناء الحرب العالمية الأولى كانوا يتساقطون كحبّات المطر. وكان الشيوعيون الروس فيما بعد يحسبون كمية السماد التي تصنعها الجثث على مساحة واحد كيلومتر، ليعرفوا كم سيوفرون من استيراد السماد الأجنبي، فقد كانوا يستخدمون جثث الخونة والمجرمين كسماد. ابتكر الانجليز الدبابات، والألمان الغاز، وكانوا يسمونه يبيريت، لأن الألمان استخدموه لأول مرة في مدينة يبيريس. لكن يبدو أن هذه لم تكن الحقيقة. وكانوا أيضًا يسمونه بغاز الخردل، لأنه كان يهيج الأنف مثل المسطردة. ويبدو أن هذه هى الحقيقة، لأن الجنود الذين عادوا بعد انتهاء الحرب امتنعوا عن تناول المسطردة. يُقال إن الحرب العالمية الأولى كانت حربًا امبريالية، لأن الألمان كانوا يعتقدون أن بقية الشعوب تعمل ضدهم، ولا يريدون لهم أن يصبحوا قوة عظمى، ويؤدون رسالتهم التاريخية. وكانت غالبية الشعوب في أوروبا، مثل ألمانيا، والنمسا، وفرنسا، وصربيا، وبلغاريا ترى أن هذه الحرب ضرورية وعادلة، وأنها ستنشر السلام في العالم. وكان كثير من البشر يعتقدون أن الحرب تُحيي في الإنسان الفضائل التي تراجعت إلى الخلف في ظل العالم الصناعي الحديث، مثل حب الوطن، والشجاعة، والتضحية. تطلَّع الفقراء إلى ركوب القطارات، وتطلّع الريفيون منهم إلى زيارة المدن الكبيرة، والاتصال هاتفيًا بالبريد، ليرسلوا تلغرافًا إلى زوجاتهم ليقولون لهم: أنا بخير، وأتمنى أن تكونِ أيضًا بخير. وتطلع جنرالات الحرب إلى أن الصحف سوف تكتب عنهم. وكان أصحاب الأقليات العرقية سعداء بأنهم سيتحدثون عن الحرب مع مواطنيهم، وسوف ينشدون معًا الأناشيد الوطنية، والأغاني العاطفية. واعتقد الجميع أنهم سيعودون جميعًا في موسم حصاد النبيذ، أو لاحقًا في أعياد الميلاد.

كان بعض المؤرخين لاحقًا يقول إن القرن العشرين بدأ في عام 1914 مع اندلاع الحرب، لأنها كانت أول حرب في التاريخ يشارك فيها هذا العدد الكبير من الدول، ويموت فيها هذا العدد من البشر، وتطير فيها السفن الجوية والطائرات، لتقذف الأراضي والمدن والمدنيين، وتُغرِق الغواصات السفن، وتُطلق القذائف من المظلات على بعد عشرة أو عشرين كيلومترًا. كانت الحرب التي اخترع فيها الألمان الغاز، والانجليز الدبابات، واكتشف فيها العلماء النظائر، ونظرية النسبية التي أثبتت أنه لا وجود للميتافيزيقا، وأن كل شيء نسبي. وعندما رأي القناصة السنغاليون الطائرة لأول مرة في حياتهم اعتقدوا أنها طائر أليف. وقام أحد الجنود السنغاليين باجتزاز قطع لحم من جثث الخيول الميتة، وراح يرميها بكل عزم على الطائرات حتى تبتعد عنه. كان الجنود يرتدون زيًا أخضرًا مموهًا حتى لا يراهم الأعداء. وكان هذا أمرًا جديدًا وقتها، حيث كان الجنود في الحروب السابقة يرتدون أزياء مزركشة للغاية حتى يسهل التعرف عليهم من بعيد. وظهرت في الهواء السفن الطائرة والطائرات، وأصيبت منها الخيول بالهلع. وراح الأدباء والشعراء يبحثون عن

أسلوب أفضل للتعبير. ففكروا في عام 1916 في مذهب الدادائية، لأن كل شيء بدى لهم سخيفًا. وفي روسيا فكروا في الثورة. فحمل الجنود حول أعناقهم أو في معصمهم علامة تحمل اسمهم ورقم الكتيبة التي يتبعونها، حتى يسهل التعرف عليهم لكي يرسلوا لذويهم برقيات التعزية. وعندما كانت رقابهم أو أيديهم تنفصل عن أجسادهم أثناء الانفجار، كانت القيادة العسكرية تعلن أنهم جنود مجهولون. وكانوا يشعلون شعلة كبيرة في معظم العواصم لإحياء ذكراهم، لأن النار تحتفظ بذاكرة الماضي. كان طول طابور الجنود الفرنسيين الذي لقوا حتفهم في الحرب يمتد إلى مسافة 2681 كيلومترًا، وطابور الجنود الانجليز 1547 كيلومترًا، والجنود الألمان 3010 بمتوسط طول الجثة الواحدة 172 سنتيمترًا. وكان إجمالي طول طابور الموتى في أنحاء العالم 15508 كم. انتشر في عام 1918 وباء البرد في كل أنحاء العالم. كانوا يطلقون عليه نزلة البرد الأسبانية التي قتلت أكثر من عشرين مليون فردًا. قال معارضو الحرب ومناهضو التسليح لاحقًا إن هؤلاء كانوا أيضًا من ضحايا الحرب، لأن الجنود ومثلهم المدنيون كانوا يعيشون في ظروف صحية سيئة. وأكد علماء علم الأمراض أن من ماتوا بسبب الانفلونزا كانوا أكثر ممن ماتوا في الحروب، وخاصة في جزر المحيط الهادىء، والهند، والولايات المتحدة الأمريكية. وقال الفوضويون بأن هذا ما يجب أن تكون عليه الأمور، لأن العالم قد فسد، ويتجه نحو الفناء.

وقال مؤرخون آخرون بأن القرن العشرين بدأ في الحقيقة قبل ذلك، وأن بدايته كانت مع الثورة الصناعية التي أنهت العالم التقليدي، وأن ذلك يرجع إلى وجود القطارات والبواخر. وقال غيرهم بأن القرن العشرين بدأ عندما تأكد البشر من أن أصولهم تعود إلى القردة. وكان بعض الناس يشككون في أن الإنسان أصله قرد، لأنه تطور أسرع منه. وبدأ الناس يقارنون بين اللغات، ويبحثون عن اللغات الأكثر تطورًا، وعن الشعوب وصلت درجات أعلى من غيرها في عملية التحضر.

واعتقدت الغالبية بأن الفرنسيين أبقوا لغتهم متطورة أكثر من غيرهم، لأن أشياء كثيرة ومهمة حدثت في فرنسا، كما أن الفرنسيين يجيدون الحديث، ويستخدمون الجمل الشرطية في الماضي البعيد، ويبتسمون للنساء بطريقة فاتنة، ونساءهم يرقصن الكنكان. واخترع الرسامون الفرنسيون أسلوب التأثيرية في الفن. لكن الألمان كانوا يقولون إن الحضارة الحقيقية يجب أن تكون بسيطة، وقريبة من الشعب، فابتكروا المذهب الرومانسي. وكتب العديد من الشعراء الألمان عن الحب، وعن الضباب الذي ينتشر في الوديان. كان الألمان يقولون إنهم حَمَلة شعلة الحضارة الأوروبية الأصليون، لأنهم يجيدون فنون القتال والتجارة، ويجيدون أيضًا تنظيم حفلات الترفيه. أما الفرنسيون فمتكبرون، والانجليز متفاخرون، والسلاف لغتهم مَعيبة. وبما أن اللغة هي روح الشعوب، فالسلاف ليسوا في حاجة إلى وطن، أو إلى دولة، لأن هذا من شأنه أن يُربِكهم. لكن السلاف كانوا يقولون إن هذا منافٍ للحقيقة، وأن لديهم في الواقع لغة أقدم من كل اللغات، وأن لديهم أدلة على ذلك. وأطلق الأمان على الفرنسيين اسم أكلة الديدان، وأطلق الفرنسيون على الألمان لقب الرؤؤس الخضراء. وكان الروس يقولون إن أوربا كلها على وشك السقوط، وأن الكاثوليك والبروتستانت قد أفسدوا أوربا تمامًا، واقترحوا أن يطردوا الأتراك من القسطنطينية، ثم يصلوا روسيا بأوروبا من أجل حماية العقيدة.

وقيل أيضًا بأن الحرب العالمية الأولى كانت حرب خنادق، لأن الجبهة بقيت دون حراك لعدة أشهر، واختبأ الجنود في خنادق مُوحِلة. كانوا يخرجون أثناء الليل أو عند الفجر للهجوم على عدو يبعد عنهم عشرين أو ثلاثين أو خمسين مترًا. وكانوا يرتدون زيًا أخضرًا مموها، ويطلقون النار، أو يلقون القنابل على بعضهم البعض. وكان لدى الألمان مدافع هاون، ولدى الفرنسيين مدافع هاون أيضًا، وكان بإمكان كل طرف أن يهجم على الآخر بالمظلات. كان الجنود عندما تذهب كتيبتهم للهجوم، يقومون بتغيير ملاجئهم، ويقطعون مع زملائهم الأسلاك الشائكة، ويتجاوزون الألغام، وكان العدو يطلق عليهم النار من مدافع الرشاش.

وكان الجنود يقضون أشهر كاملة وأعوام في تلك الملاجىء، يلازمهم الملل والخوف. كانوا يلعبون الورق، ويطلقون على الملاجىء والدهاليز أسماء مختلفة. فكر الفرنسيون في أسماء مثل القواقع، وميدان الأوبرا، والفقر، والحظ العاثر، والهارب من التجنيد، والكراهية، واللغز. أما الألمان فكانوا يطلقون أسماءً مثل جريتشن، وبرونهيلدا، وبيرتا السمينة، وياليتو الدموي، والخنزير. كان الأمان يقولون إن الفرنسيين متكبرين، والألمان يقولون إن الفرنسيين متخلفين. ولم يكن لدى أحدهم أمل في العودة إلى بيته في أعياد الميلاد. وشعروا بالوحدة والوحشَة. كانت تأتيهم أخبار من مراكز القيادة العسكرية بأن الحرب أوشكت على الانتهاء، وألا يحزنوا، وأن تظل معنوياتهم مرتفعة، وأن يصبروا، وأن يحافظوا على إيجابيتهم. وفي عام 1917 كتب جندي إيطالي لشقيقته خطابًا يقول فيه: أشعر بأن الخير الذي كان في داخلي يهجرني بالتدريج، وأصبح أكثر إيجابية يومًا بعد الآخر. وحدث لغز طبي بأن الطاعون لم ينتشر، رغم أن الجرذان كانت تسكن مع الجنود في الخنادق، وتقرض الأحياء في أنوفهم وأصابعهم. وخاف القادة في المراكز العسكرية من انتشار الطاعون، وتمكين الأعداء من الاستيلاء على المواقع الدفاعية، فأعلنوا عن مكافأة نظير كل فأر ميت. وراح الجنود يطلقون النار على الفئران، ويقطعون ذيولهم، حتى يكون عندهم الدليل، وفي المساء يسلمونه للمسئول عن جمع ذيول الفئران. وكان المسئول يحصيها، ويخبرهم عن قيمة ما فاز به كل منهم. لكن المكافأة لم تصل نهائيًا، لعدم تخصيص موارد لهذا الأمر. كان القمل أيضًا يعيش بين الجنود. وأحيانًا عندما كان الجنود يستطلعون الأعداء في الليل، ويسمعون جندي العدو يهرش، يتعرفون من ذلك على المكان الذي يختبأ فيه، فيطلقون النار ناحيته، ويلقون القنابل. لكن القمل لم يختفي ولا حتى الأعداء.

في القرن العشرين ابتعد الناس عن الدين التقليدي، لأن الناس عندما تأكدوا أن أصولهم تعود إلى القردة، وأنه يمكنهم السفر بالقطارات، والتحدث عبر الهاتف، والغوص بالغواصة، بدءوا يبتعدون عن الدين، وقل ترددهم على الكنائس. كانوا يقولون بأنه لا يوجد إله، وأن الدين يجعل الناس مُغيّبين، ويعيشون في الظلام، وأنهم يناصرون الفلسفة الوجودية. كانت الفلسفة الوجودية مذهبًا فلسفيًا يقول بأن التفكير البشري والحكم على الأمور هو نتاج العلوم الاجتماعية والطبيعية، وأن الشيء الوحيد الحقيقي هو ما يثبته العلم، وأن علم الميتافيزيقا ما هو إلا هزل.

لم يكن الوجوديون يؤمنون بوجود الله، لكن بعضهم كان يعتقد في باديء الأمر بأنه ربما تكون هناك سلطة أعلى، وأن هذا أمر ممكن من الناحية العلمية، لكنهم لم يتحققوا منه بعد. لكن العلماء كانوا يؤكدون أن الحياة ما هى إلا نتيجة لمجموعة من الملابسات، وأن النظام الكوني نشأ

من الفوضى. لم يؤمنوا بنظرية خلق العالم كما تقول التقاليد المسيحية منذ ستة آلاف عام. كان علماء الفيزياء الفلكية يؤكدون أن كل شيء نشأ من الكوارك، والذرات، والغاز، وأن الكون عمره اثنى عشر أو خمسة عشر مليار عامًا، وأنه يتضخم باستمرار. لكنهم لم يعرفوا إن كان سيظل في التضخم، أم أنه سيبدأ في التقلص يومً ما، أو ربما ينفجر. وكان المتدينون يقولون إن الإنسان ربما يكون قد نشأ من الكوارك، والذرات، والغاز، لكن هذا لا يغير من الأمر شيئًا. فلا بد من وجود خالق للقردة وللكوارك. وليس مهما أن يكون الكون قد نشأ قبل ستة آلاف عام أو خمسة عشر مليار سنة، لأن الأهم هو ما كان قبل ذلك كله، وأن العلم مازال عاجزًا عن معرفة ذلك. لكن علماء الفيزياء الفلكية قالوا بأنه قبل ذلك لم يكن هناك شيء يذكر، لكن المتدينون قالوا إن هذا مثبت في الانجيل. ومع مرور الوقت فقدت الوجودية بريقها، لأن الناس لم يعرفوا ماذا يفعلون حيال التقدم، وحيال الغواصات والقنبلة النووية، وبدأوا يفكرون في الوصول إلى ما هو أسمى من ذلك. قال بعض العلماء بأن البحث العلمي عن وجود الله أمر وارد، ورغم أن العلم لا يمكنه أن يقدم دليلًا دامغًا عن وجود الله أو قوة عليا، لكن يمكنه أن يصنع أرضية لتقديم إجابة علمية لتساؤلات البشر، أي أن مفهوم الحياة ومفهوم الإله هما أمر واحد. وراح الفلاسفة يفكرون في إمكانية وجود إله ولو بشكل افتراضي، وهو أمر غريب.

انتظر الناس في نهاية القرن التاسع عشر القرن الجديد بشغف كبير. كان لديهم شعور بأن القرن التاسع عشر قد رسم للبشر الطريق الذي سيسلكوه. وأنهم سيتمكنون جميعًا في المستقبل من استعمال الهاتف، وركوب البواخر، والتنقل عبر الطرق، والسير على السلالم المتحركة ذات الدرابزين المتحرك، وسوف يدفئون منازلهم بفحم جيد، ويستحمون مرة على الأقل في الأسبوع، وسوف ينقل التلغراف الكهرومغناطيسي والهاتف أفكارهم ورغباتهم بسرعة البرق، وسيعبرون المسافات، وسيتمكن المجتمع البشري من تحقيق التناغم والعيش في سلام ووئام. وصار المعرض الدولي في باريس عام 1900 حدثًا دوليًا. حيث احتفى المعرض، والبشرية على أعتاب قرن جديد، بالطرق التي سيسلكها العالم. تنقّل الزائرون على الأرصفة المتحركة، واستمتعوا بالاكتشافات الحديثة، وشاهدوا الاتجاهات الفنية الحديثة. كانوا مقتنعين بأن القرن العشرين سيقضي على الفقر، وسيخفف من عناء العمل، وبأن الامكانات التي توفرها الكهرباء ستتجاوز أكثر أحلامهم جنوحًا. وسوف يتمتع الجميع بضمان اجتماعي، وبإجارة لمدة أسبوع مدفوعة الأجر. وأن الناس سيحيون بارتياح وبصحة وديموقراطية، وأن النساء سوف يمارسن الديموقراطية، وسيتمكنّ من المشاركة في الانتخابات، واختيار من يمثلهن. كن في انتظار القرن العشرين، ويعتقدن أنه فرصة جديدة للبشرية، وأن البشرية يجب أن تتعلم من أخطاء الماضي. بدأت النساء في المشاركة في الانتخابات في فنلندا عام 1906، وفي النرويج عام 1913، وفي الدانمارك عام 1915، الخ. وبمرور الوقت تطلعت النساء إلى التعليم، وإتمام شهادة الثانوية، والعمل في السياسة والعلوم، والانضمام إلى الجيوش المحاربة من أجل السلام. لم توافق غالبية الرجال على كل مطالب النساء. كانوا يعتقدون أن حياة الأسرة والأعمال الخفيفة تناسب النساء أكثر. فالرجال لديهم قدرة أكبر على تنظيم المجتمع، وعلى التفكير المجرد، والحياة في جماعة، وعلى التواجد في المناسبات الاجتماعية. سَنّت بعض برلمانات الدول الديمقراطية قوانين تفرض تمثيل مماثل للنساء في البرلمان. ولكن بعض النساء قالت إن هذا ليس عملًا ديمقراطيًا، لأن

النساء في النهاية بشر، وليس من العدل أن تقوم فقط بولادة الأطفال وغسل الحفاضات، وغيره، وانتظار أزواجهم ليعطونهم رواتبهم. وقال بعض الرجال إنهم يفضلون البقاء في المنزل وغسيل الحفاضات، وغيرها، وأرادوا ألا يذهبوا إلى العمل. في السويد حيث توجد سياسة اجتماعية قوية كان العديد من الرجال يحصلون على أموال مقابل أن تذهب زوجاتهم إلى العمل. واعتقد الكثير من البشر طبقًا للدراسات أن أفضل حدث في القرن العشرين هو اختراع موانع الحمل، لأنه النساء استطعن ممارسة الجنس وقتما شاءوا، دون أن يخفن من الحمل. ومكنهن هذا من الاستقلالية الجنسية والاقتصادية، فاستطعن تقلد مختلف الوظائف الهامة. ولم يعدن يخفن من الفأر، لأنهن تخلصن من الأحكام المسبقة للرجال عن المرأة. وقال علماء الاجتماع أن النموذج التقليدي للمرأة في المجتمع الغربي قد تم تجاوزه إلى الأبد، لأن النساء اللواتي وقعن على مدى قرون فريسة للنظام الطبيعي، قد انتقلن إلى بفضل موانع الحمل إلى نظام مختلف وحديث. وصار تحرير المرأة مناقضًا للحرية الجبرية، لأن النساء صرن يتحملن المزيد من المسؤولية والأعباء. وأن ما كان يعتبر في الماضي إنجاز إجتماعي كبير وامتياز للنساء، ومنعهن من العمل في الورديات الليلة وإجازات الأمومة، الخ. صارت النساء اليوم تعتبره شكل من أشكال التمييز.

مع نهاية القرن العشرين لم يعرف الناس على وجه الدقة إن كان عليهم أن يحتفلوا ببداية الألفية الجديدة في عام 2000 أم في عام 2001. كان هذا أمرًا هامًا بالنسبة لمن كانوا ينتظرون نهاية العالم. لكن غالبية الناس لم تكن تؤمن بنهاية العالم، وكانت قضية تافهة بالنسبة لهم. بعض الناس كانوا في انتظار نهاية العالم، لكنها ستأتي في يوم عادي تمامًا. كان بعض المسحيين يقول إن بداية الألفية ستكون في عام 2004، لأن المسيح وُلِد بعد أربعة أعوام مما يظن البعض.

وبداية الألفية بالنسبة لليهود هى عام 5760 وبالنسبة للمسلمين عام 1419. كذلك كان التاريخ لأنصار التقويم القديم أقل قليلًا عن التقويم الجريجوري، لذلك لم تقم ثورة أكتوبر إلا في نوفمبر عام 1917. وكان الأمر لا يعني شيئًا بالنسبة للبوذيين، لأنه حسب التقويم البوذي كان عام 2542 من العهد البوذي الشاكاراي، كان البوذيون بالأحرى مشغولين بما سيحدث لهم في العالم الآخر، وإن كانوا سيتحولون إلى ضفدعة أم إلى قرد الغينون، الخ. حصلت البوذية والطاوية على الكثير من الأنصار الأوروبيين في القرن العشرين. كانوا يقرعون النواقيس، ويتنفسون عن طريق الحجاب الحاجز، ويتحدثون عن الين واليانج، ويؤلفون الكتب الصوفية، ويقولون إن العالم قد يبدو للبعض أنه مليء بالألغاز، لكن الحقيقة هى أن كل شيء في حالة تناغم. وعندما كان يواجه أحدهم لغزًا يؤلف عنه كتاب، لأنه كان عصر الميديا، وأراد كل إنسان أن يؤلف كتابًا. كان الناس يخافون من الأعمال الإرهابية أكثر من خوفهم من نهاية العالم. كانوا يخافون أيضًا من حوادث الأنظمة الكهربائية التي تعطل التلفزيون، وأفران المايكرويف، وماكينات الصرف الآلي، والمطارات، ولوحات الطرق السريعة، وإشارات المرور في المدن، والمصاعد في العمارات الحديثة. تزايدت في القرن العشرين حوادث القتل، لأنها كانت الوسيلة التي يعبر بها من أراد عن اختلافه العميق مع الآخرين. وحدثت أشهر حوادث الاغتيالات في سرايفو عام 1914. وأسفر الحادث عن مقتل وريث العرش النمساوي. الأمر الذي أدى إلى اندلاع أول حرب عالمية، وبداية القرن العشرين. كان يطلق على حوادث الأنظمة الكهربائية التي حذر منها الخبراء المواطنين اسم

فيروس الميلانيوم، وكان من المفترض أن يحدث يوم 31/12/99 عند منتصف الليل، عندما يتغير التاريخ إلى 1/1/00 لأن كل برامج الحاسوب كانت قائمة على استخدام صفرين في التقويم. وكان هناك خوف من أن تقوم النظم الاليكترونية بفهم عام 2000 على أنه 1900، وكأن القرن العشرين لم يكن، واغتيال وريث العرش النمساوي لم يحدث.

ظهر أثناء الحرب العالمية ما سُمي بالدعاية الحربية، لأن الحرب كانت في كل مكان، ولكي تنتهي قبل أعياد الميلاد، كان يجب حثّ الناس على التضحية، والاقبال عليها بكل رضي. فالعديد من الرجال كان يحارب على جبهات القتال، واضطرا النساء للعمل بدلًا منهم في المصانع والنقل العام، وغيره. ففكرت وزارات الإرشاد في ملصقات تخاطب المواطنين المدنيين.

كانت النساء في الملصقات النمساوية تقول

WIR HALTEN DURCH

والنساء البريطانيات تحملن ملصقات تقول:

WOMEN OF BRUITAIN SAY – GO

والنساء المجريات كن يقلن على ملصقاتهن

HA MAJD EGYSZER MIND-NYAJAN VISSZAJOENNEK

والنساء الإيطاليات كتبن

SEMPRE AVANTI

والنساء الفرنسيات

ILS SONT BRAVES, NOS CARS

والنساء في أمريكا كان يهتفن

!GEE! WISH I WERE A MAN

I’D JOIN THE NAVY

كل هذا كان معناه أننا لن نتراجع، إلى الأمام! المجد لنا! تقدموا! شبابنا لا يخشى الموت! هيا! لو كنت رجلا لتطوعت في البحرية! وبعدها بقليل بدأت الأطفال تظهر على تلك الملصقات، وظهرت على إحدى الملصقات الانجليزية صورة بيضة، يخرج منها طفل وليد وهو يحمل بندقية وحربة، ويسأل: هنا مازال هنا أحد الفرنسيين؟. وانشغلت وزارات الإرشاد بأفضل طريقة للمساهمة في النصر. كان الألمان يقولون إن الفرنسيين يأكلون الضفادع، والروس يأكلون الأطفال الصغيرة. وكانت النساء ترسلن طرودًا وخطابات لجنود لا يعرفوهن على جبهات القتال، وكان

الجنود يردون عليهن، ويسألونهن عن أعمارهن. كان الجندي أحيانًا يموت قبل أن يصله الرد، وكان القائد يبحث بين رجاله عمن لم يصله خطاب، ومن له نفس الاسم. كانت النساء يرسلن الخطابات ويعملن في مصانع الأسلحة، ويصنعن القنابل والغازات الحربية. كان يعمل في مصانع السلاح الانجليزية مليون امرأة؛ حوالي ثمانية عشرة منهن يوميًا يصبن بالعمى، وأخريات لقين حتفهن جراء التسمم بالغاز. كانت النساء اللواتي تعملن في مصانع السلاح لهن شعر برتقالي اللون، ووجوه صفراء، وكان الناس يطلقون عليهن اسم طيور الكناري. وكان الأطباء يؤكدون بأن ثلثيهم سيصاب بالعقم بعد انتهاء الحرب.

كانت الغازات الحربية تستخدم لإضعاف معنويات جنود الأعداء، لكن لم يكن الغاز قادرًا على اختراق خطوط الأعداء. وكان الجنود الذين لم يتمكنوا من وضع قناع الغاز يتصرفون وكأنهم يغرقون. وكل من استطاع منهم الزحف، كان يزحف، ومن لم يستطع الزحف كان يسبح بصدره، ويحاول الابتعاد عن الغاز إلى حيث يمكنه التقاط أنفاسه.

كان سكان المدن قبل الحرب العالمية الأولى يستعملون مصابيح الكيروسين في الإضاءة، وكان سكان القرى يشعلون الشموع، ويستعملون الفخم أو الأخشاب للتدفئة. لم يستمر الأمر طويلًا حتى بدأت الكهرباء تظهر في المدن، وبفضلها تحققت في القرن الجديد أكثر الأحلام جموحًا. في البداية كان سكان القرى يخافون من الكهرباء. ولم يروا لها أية اهمية في حياتهم، لأن جهاز الراديو أو الفونوغراف لم يكن موجودًا إلا عند القلة القلية منهم. وبعد الحرب العالمية الثانية، عندما بدأ تصنيع الثلاجات والغسالات وعصارات الملابس والتلفزيون بدأ سكان القرية يهتمون لسماع الراديو، ويشاهدون التلفزيون حتى يعرفون ما يدور في المدن. وطلبوا من الحكومة أن تمد اليهم خطوط الكهرباء. كان المهندسون يطلقون على الراديو الهاتف اللاسلكي، وكان العجائز يعتقدون أن الراديو مثل الهاتف، وأن عليهم أن يدفعوا أموالًا حتى يخبرهم شخص ما هاتفيًا، ويقول لهم متى بدأت الحرب. وعندما شاهدوا التلفزيون لأول مرة اعتقدوا أنه مثل مسرح العرائس الذي يشاهدونه في سوق القرية، وأن أحد أفراد الأسرة، قد تكون ابنته أو حفيده، يجلس في الغرفة المجاورة، ويحرك العرائس ليسخر منهم. كان بعض كبار السن عادة يجيبون عندما يسأل أحد مقدمي البرامج التلفزيونية أو الإذاعية. فمثلا عندما يسأل أحدهم في التلفزيون أو الإذاعة، ويقول: كيف انتهي الأمر؟ يقولون: أنا في الحقيقة لا أعرف. أو عندما يسأل أحدهم في التلفزيون أو في الإذاعة: كيف ستكون حالة الجو غدًا؟ يقولون: غالبًا ستسقط الأمطار، لكن المحصول لن يكون جيدًا. وحدث تقدم كبير في مجال الصحة، لأن الناس قبل الحرب العالمية الأولى كانوا نادرًا ما يستحمون، وعندما يحدث هذا، كان الأسرة كلها تستحم، وأحيانًا مع الجيران في حوض واحد. كان الأغنياء في المدينة لديهم حوض استحمام خاص، وبمرور الوقت أصبح عندهم مياه ساخنة. لكن كثير من الناس في المدن والقرى ظلوا يخافون من المياه الساخنة لفترة طويلة، لأنهم كانوا يعتقدون أن بها ميكروبات. لم يعرفوا على وجه الدقة ما هو المقصود بالميكروبات، لكنهم تخيلوا أنها شيء ضار بالصحة. وقام الأطباء بعمل توعية لكي يشرحوا للناس، ويوضحون لهم أن الميكروبات موجودة في المياه الباردة والدافئة بنفس القدر، وإن كان الأمر يحتاج إلى مزيد من التحقق. وبالتدريج بدأ الناس الاستحمام حتى في الريف بشكل دوري مرة كل شهر، ومرة كل

أسبوعين أو مرة في الأسبوع. وفي نهاية القرن كان الناس في الدول المتقدمة تغتسل بالدش، أو تستحم في الأحواض مرتان يوميًا، وأحيانًا أكثر. وكان كلهم عندهم حمامات بصندوق شطف وورق تواليت.

اخترع ورق التواليت أحد خبراء الورق السويسريين في عام 1901، وذلك في اليوم الذي سلّمت فيه الحكومة السويسرية إلى الحكومة الإيطالية الرجل الفوضوي الذي كان متهمًا بالشروع في قتل ملك إيطاليا. وكتبوا في الصحف أنه ليس بالاختراع الكبير، ولكنه هام. وفي عام 1935 اخترع الأمريكيون حمالات الصدر المنتفخة للنساء صغيرات النهدين. وفي عام 1968 عندما تظاهرت النساء في المدن الغربية للدفاع عن حقوق المرأة، قمن بخلع حمالات صدورهن أمام الصحفيين ليخبروهم بأن حقوق الرجل والمرأة متساوية. وارتفع نصيب المواطن من استهلاك المياه من عشرة لترًا في اليوم إلى مائتين وخمسة عشر لترًا، وانخفض منسوب المياه الجوفية في كل أنحاء العالم، وبدأ الحديث عن مشكلة نقص المياه بعد خمسين عامًا.

بعد مرور عام أو عام ونصف على بداية الحرب كان يحدث أحيانًا أن يتوقف الجنود عن إطلاق النار، وتحدث هدنة غير معلنة، ويتصرف الجنود وكأن الحرب لم تندلع. كان الجنود الأمان في فاوكيوس لديهم كلب بوليسي، وكان الكلب يتحرك بين الخطوط الألمانية والانجليزية وهو يحمل الخبز، والسجائر، والشيكولاتة، والكونياك. كان لدى الجنود الأمان السجائر والشيكولاتة، ولم يكن عندهم الخبز ولا الكونياك، وكان الانجليز عندهم المزيد من الخبز والكونياك، ولكن القليل من السجائر. وفي بريدزا كان الجنود النمساويون يرسلون للإيطاليين قطًا بريًا وهو يحمل علبة مكتوب عليها: نرسل إليكم قِطًا يحمل لكم السيجار. كان السيجار معلق على ظهر القط بقطعة حبل. كان الإيطاليون يدخنون السيجار، ويقتلون القِطّ، ويأكلون لحمه. وفي عام 1914 كان الجنود الألمان والإيطاليون في كارينسي يغنون معًا بمناسبة أعياد الميلاد الأناشيد الدينية، ويقرعون الكؤوس، ويتبادلون النكات. وكان الألمان ينادون على الإيطاليين ليسألونهم، إن كانوا حقًا يأكلون الضفادع، وكان الفرنسيون يسألون الألمان إن كانت شواربهم تنبت بعد شرب البيرة. وكانت مراكز القيادة العسكرية لا تمنع الهدنة الغير معلنة، وكانت هذه طريقة لجعل الجنود تستريح، بدلًا من أن يذهبوا في إجازات. وفيما بعد اعتبرت القيادة العسكرية الألمانية أنها قد تكون خسارة كبيرة لو لم تستغل الهدنة الغير معلنة لصالح الدعاية، والحصول على معلومات عن العدو. فبدءوا في طباعة نشرات وبطاقات. كان الجنود الألمان يرسلونها عبر حقول الألغام مع السجائر. وكانوا يكتبون في النشرات بأن الانجليز يساعدون الفرنسيين فقط في العلن، وذلك لأن الجبهة الشرقية لم يعد لها وجود، وأنه تم طرد الجيش الروسي إلى خلف جبال أورال. وكانوا يضعون على البطاقات صورًا للجنود الفرنسيين الذين سقطوا في الأسر لدي القوات الألمانية، وكانت وجوههم مسفوعة من الشمس، وملابسهم نظيفة.

وكان هناك أناس ينتظرون القرن الواحد والعشرين بشوق، ويقولون إنها فرصة جديدة للبشرية، ويجب أن نتعلم من أخطاء الماضي، ويجب أن نصنع إنسانًا جديدًا صالحًا للعصر الجديد. كانوا يعتقدون أنه عندما يتعلم الإنسان من الماضي فلن تكون هناك حروب، ولا أمراض، ولا فيضانات، ولا زلازل، ولا مجاعات، ولا نظم ديكتاتورية، لأن الإنسان الجديد سيكون فعّالًا

ومتسامحًا وإيجابيًا. وقالوا أيضًا عن القرن العشرين بأنه أكثر العصور دموية في التاريخ الإنساني، وكل من تطلع إلى القرن الواحد والعشرين كان يقول بأنه لكن يكون بأي حال أسوأ مما قبله. وقال غيرهم إن الأسوأ متوقع دائمًا، أو بنفس درجة السوء على الأقل. وقال بعض من قرأ الانجيل إن البشرية لا تتعلم من أخطائها، وأن الانجيل يقول إن كل شيء كامن في التبديل والتغيير الذي يُنبأ بمن سيتعرض للقتل، ومتى وأين ستسقط الحكومة، وتندلع الحرب، ومن سيكون رئيسًا، وأين. فهناك نعرف أن نصف مليون إنسان سيسقط في فيردون، وأن سيليكون أو مرض الايدز سيظهر، وأن سقوط الشيوعية في روسيا سيحدث، وكل البيانات والتفاصيل، كل شيء. لكن لا يمكننا أن نعرف هذه الأمور مسبقًا، لأننا لا نعرف عما نبحث، ولو عرفنا ما نبحث عنه، لوجدنا كل شيء في الوقت المناسب، ولما حدث شيء، ولَما كان هناك أي شيء. كانوا أيضًا يقولون إنه ربما بدى الأمر غريبًا لمن لا يفهمه، لكنهم يعرفون ذلك. وقال البعض إن نهاية العالم ستكون قريبة جدًا، وقال آخرون إنها ستحدث بعد فترة من الزمن. وقال علماء الأنثروبولوجيا إن نهاية العالم عنصر مهم لحياة الفرد وما حوله، لأنها تتطلب نبذ الخوف، والعدوانية، والرضا بالموت. وقال علماء النفس إنه من الضروري أن يتخلص الإنسان من العدوانية، وأن يمارس الرياضة، ويشارك في المسابقات، لأنها تقضي على العدوانية، فيقل بعدها عدد الموتى.

حارب في صفوف الجيش الألماني في عام 1944 وعام 1945 نصف مليون امرأة، كان بعضهن يعملن في الفرق الخاصة بإزالة الألغام، حتى يكون الطريق ممهدًا أمام الجنود الألمان عند التراجع. وقامت بعضهن بإطلاق النار على طائرات الأعداء التي كانت تقصف المدن الألمانية. وعملت أربعة ملايين امرأة في الدفاع المدني، وبحثن عن الجثث وسط أنقاض البيوت التي قصفت، وكن يحملنها إلى مقابر جماعية، حتى لا ينتشر الطاعون. وكانت تنظم دورات تدريبية خاصة للنساء في بعض المدن حول كيفية حرق الجثث. كانت الدورات تستمر لمدة أربعة أعوام، وكان يشارك في المجموعة الواحدة خمسة عشر أو عشرين مشاركه. كن يتعلمن كيفية العمل على ماكينات فرم العظام، وتغطية الحفرة التي يضعن فيها الجثث، وكيفية تمهيد الأرض حتى يزرعوا فيها الشجر لاحقًا. كان وجود الأشجار في المدن ضروريًا لتجديد الاكسجين، وكان رماد الجثث مناسبًا لأن يكون سمادًا في مزارع الفاكهة وحدائق الخضار، لأن ألمانيا كانت تعاني من نقص في السماد العضوي. كانت الجثث القادمة من وسط الأنقاض ملتصقة بعضها، وعثرن أحيانًا على جثتين أو ثلاث جثث متشابكة الأيدي أو متعانقة، وكان يضطررن إلى فصلها بالمنشار. ولما رفضت إحدى السيدات فصل الجثث، أراد قائد فريق الإجلاء أن يطلق النار عليها بتهمة التخريب، لكن الجنود الذين كُلّفوا بإطلاق النار عليها تم ترحيلهم قبل أن يفعلوا.

كان غاز يبيريت من أقوى أنواع الغازات الحربية، وتفوّق على باقي الغازات مثل الكلور، والفوسجن، والكلوروبيكرين، وسيانيد الهيدروجين، والزرنيخ. وظلوا يستخدمونه لفترة طويلة بعد الحرب العالمية الأولى. في تلك الأثناء اخترع العلماء أنواعًا أخرى من الغازات الحربية، مثل غاز لويسيت، وتابون، وغاز السارين، والسومان. كان استخدام الغازات الحربية مجرمًا في مختلف المؤتمرات في الأعوام 1899، و1907، و1922، و1925، و1946، و1952، و1972، و1990، و1992.

وجرت على جبهات القتال وفي الداخل تدريبات على مقاومة الغازات. وكان الجنود والمدنيون يتعلمون كيفية ارتداء الأقنعة المضادة للغازات في أسرع وقت ممكن، وتجنب تسرب الطين أو الأتربة إلى الفلتر. وفي عام 1915 صنع الفرنسيون أقنعة خاصة ضد الغاز للخيول والكلاب. وصنع الأطباء في نهاية القرن أدوية وقائية ضد التسمم بالغاز، وفيما بعد توصلوا إلى أن الأدوية المضادة للتسمم بالغاز تتسبب في التهاب الكبد، والسّل، والصداع النصفي، وفقدان الذاكرة. أنتج الألمان في أثناء الحرب العالمية الثانية 18000 طن من الغازات الحربية سنويًا، لكن الاستراتيجيون الألمان أكدوا أن استخدام الغازات الحربية يعوق تقدم الجيوش، وفيما بعد قالوا إنه يعوق تراجع الجيوش أيضًا. استخدم الألمان الغاز لقتل الغجر واليهود في معسكرات الاعتقال. واخترعوا الغاز الذي أطلقوا عليه اسم الإعصار ب، والذي كان بإمكانه قتل أعداد كبيرة من البشر بسرعة وبأقل تكلفة.

كان الغاز المسمى الإعصار ب ينتمي من حيث تركيبته إلى مجموعة المواد المطهرة، وتم تجربته لأول مرة في فبراير عام 1940 في معسكرات الاعتقال في بوخنوالد على 250 طفل غجري، قبضت عليهم الشرطة في مدينة برنو، وأثبتت التجربة أن بأنه من أنسب أنواع الغازات الأخرى في تحقيق الهدف منه.

من أكثر إخفاقات القرن العشرين كان التعليم الالزامي والتقدم التقني، فالتعليم والثقافة لم يجعلا الإنسان أفضل أو أكثر إنسانيه، كما اعتقد الناس في القرن العشرين. فكثير من القتلة، والطغاة، والسفاحين كانوا من محبي الفنون، ويستمعون إلى الأوبرا، ويترددون على المعارض، ويكتبون الشعر، ويدرسون العلوم الانسانية والطب، الخ. انتشر بين الفلاسفة رأي يقول إن حقبة المذهب الإنساني في القرن العشرين انتهت، وبدأت حقبة جديدة يطلق عليها ما بعد المذهب الإنساني، لأن ملامح هذا المذهب لم تكن واضحة. كان الفلاسفة والمؤرخون يقولون إن المذهب الإنساني كان يتلخص في ثقافة الأدب، وأنه مَكّن من إدارة المجتمع كخلية أدبية، وأنه ليس صحيحًا أن هذا بدأ مع ظهور الإذاعة بعد عام 1918، والتلفزيون في عام 1945، والثورة التكنولوجية في الثمانينات والتسعينات. كانت الضربة القاضية للمذهب الإنساني هو ظهور التكنولوجيا البيولوجية. كان البعض يقول إنه من الطبيعي أن يكون المذهب الانساني أكبر خدعة في تاريخ الفكر البشري، ولم يكن قادرًا على جعل الإنسان أكثر تفاؤلًا. وكانوا يقولون إن التكنولوجيا البيولوجية تمنح الإنسان فرصة للتفاؤل، لأنه لأول مرة في تاريخ البشرية يصبح الإنسان قادرًا على اختيار جنسه قبل الولادة، وأن الهدف هو التوصل في المستقبل إلى الشفرة الصحيحة للتفاؤل. وقال آخرون إنه ليس حقيقيًا أن المذهب الإنساني بعث روح التفاؤل في الإنسان، كونه أصبح مسئولًا عن أفعاله، رغم أن هذا كان تقدمًا كبيرًا. لكن تزايد مع الوقت عدد الذين يعتقدون أن قضية المسئولية قد تم تجاوزها، وظهرت بدلًا منها قضية الأداء وتحقيق المنفعة، وأن الإنسان الجديد لن يكون مسئولًا، بل فعّالًا. وأن حُسن الأداء هو من طبائع الأمور، في حين أن المسئولية هى من نسج خيال المذهب الإنساني، وذريعة تحول دون حسن الأداء.

انتشر المذهب الإنساني والفاشية في أوربا بعد الحرب العالمية الأولى، لأن كثير من الناس اعتقد أن العالم القديم قد صار فاسدًا، ويجب البحث عن طرق جديدة، وأن النظام الديموقراطي لم

يمنع من نشوب حرب عالمية، وأن الرأسمالية كانت سببًا في الأزمة الاقتصادية. كان الشيوعيون والفاشيون يقولون إنه من الضروري صنع إنسان جديد، يكون فخورًا بنفسه وقويًا ومجتهدًا ومخلصًا، يؤمن بالعدالة المطلقة، والحياة في جماعة. كانت العدالة المطلقة تعني أن كل البشر ليسوا متساوين كما تقول النظم الديموقراطية، التي تقول دساتيرها بأن كل المواطنين متساوين في الحقوق. كان الفاشيون والشيوعيون يقولون إن حقوق الإنسان ليست سوى غطاء تختفي خلفه مصالح الطبقة البرجوازية التي تستغل العمال. وكانوا يقولون أيضًا إنه من الضروري تخليص العالم من العفن البرجوازي حتى ينتهى العالم القديم إلى الأبد، ويبدأ عالم جديد. كان الفاشيون يقولون إن كل إنسان سيصبح في العالم الجديد عاملًا، مثلما كان كل إنسان من قبل مسيحيًا، وكان الشيوعيون يقولون إنه في العالم الجديد سيصبح المجتمع خال من الطبقية، يحكم نفسه بنفسه، وسيعمل الجميع لصالح الجميع. وكانوا يقولون إن الشيوعية هى النهاية الحتمية للتاريخ البشري، وأن الناس سيعملون بسواعدهم في الصباح، وبأرواحهم في المساء. ظهر أول حزب شيوعي في عام 1918 في الاتحاد السوفيتي، وظهر أول حزب فاشي في إيطاليا في عام 1919، وانتشرت الفاشية من إيطاليا إلى كل انحاء أوربا، لأن الناس كانوا يدركون أن السياسة أصبحت فاسدة، وأن التعددية الحزبية تكلف الكثير من الأموال بلا طائل. كان الفاشيون والشيوعيون ضد التعددية الحزبية، وكانوا يقولون إن التعددية الحزبية والديمقراطية تؤديان إلى تفكيك المجتمع، واختفاء القيم، وأنهم عندما يصلون إلى السلطة سيؤمنون للجميع حياة هانئة ومريحة، باستثناء من لا يستحق مثل هذه الحياة، وأنهم سيضمنون تطور مُطلق لقلب المجتمع النابض، وسيتخلصون من الطفيليين الذين يسعون إلى الحفاظ على العالم القديم، لأنهم عاجزون عن التفكير الثوري. نشأت النازية في ألمانيا، وكانت تنادي بالتطهير، بمعنى أن الجنس الآري لا يجب أن يختلط بالأجناس الأدنى منه حتى لا يتلوث الدم الآري. كان الآريون يُعرفون ببشرتهم البيضاء وشعرهم الناعم، وكان عرض جمجمة الوجه للواحد منهم لايزيد عن 75 سم، وكانوا يتمتعون بالروح البناءة، والقدرة على العمل الجامعي. وكان النازيون يقولون إن الطبيعة قاسية، لكنها عادلة. وقالوا أيضًا إن كل من أراد تحقيق الأفكار الثورية وترسيخ القيم والعدالة المطلقة يجب أن يكون هو الآخر قاسيًا وعادلًا. وأن التاريخ ما هو إلا صراع أبدي بين الحق والباطل، وأنهم هم الحق، وأن كل إنسان يجب أن يختار أي الفريقين سيتبع، وإلا سحقه إعصار التاريخ.

اخترع النازيون غرف الغاز وغاز الإعصار الذي مكنهم من قتل أعداد غفيرة من البشر بسرعة، وبأقل تكلفة حتى يحافظوا على الجنس الآري من الفساد. كان النازيون يقولون إن الجنس الآري هو أفضل الأجناس، وأنهم افضل الشعوب الآرية على الإطلاق، لأنهم يجيدون فنون القتال، والتجارة، وتنظيم حفلات السمر الجماعية. وكانوا يقولون إن أوروبا في سبيلها للسقوط، وأنهم سيحولون دون سقوطها، لأنه من الخطأ ترك أوربا تسقط وتفنى تمامًا. وأنه يجب أن تتخلص أوربا من الشعوب التي لا طائل منها، مثل الغجر والسلاف، ومن المجانين والمثليين وغيرهم، وخاصة اليهود، لأن اليهود يريدون ذبح أوربا. فنظموا في ألمانيا وفي الدول المحتلة حملات على اليهود، واقتادوهم إلى معسكرات الاعتقال. وهناك خلعوا عنهم كل ملابسهم وأرسلوهم إلى أماكن تُسمى غرف الغاز. كانت عبارة عن صالات ضخمة بمدخل وحيد، لا توجد بها نوافذ، ومدوا على سقفها أنابيب، وبعد أن تمتلىء الصالات بالناس يطلقون عليهم الغاز، فيختنقوا.

وكانوا يأخذون من الجثث المختنقة الأسنان الذهبية، ويسلخون جلد بعضها، ويصنعون من تلك الجلود غطاء لمصابيح كبار الضباط والسياسيين. وكانوا قبل أن يرسلونهم إلى غرف الغاز يحلقون رؤوسهم تمامًا، ويستخدمون الشعر كحشو للحشية، أو لصناعة الشعر المستعار للدمى. وتوصل العلماء إلى طريقة لصنع صابون من دهون الجثث المختنقة كي يستعمله الجنود الألمان. كانوا يضيفون إلى كل خمسة كيلوجرامات عشرة لترًا من المياه، وكيلوجرامًا واحدًا من الصودا الكاوية، ثم يتركون الخليط يغلي في المرجل لمدة ثلاث ساعات، ثم يضيفون قليل من الملح، ويواصلوا غليه قليلًا، ثم يتركوه ليبرد حتى تتكون قشرة، يقومون بنزعها وتقطيعها، وتركها تغلي قليلًا مع إضافة بعض سائل خاص يجعل رائحة الصابون مقبولة، ثم يتركوها تبرد. وفي مدينة غدانسك أصيب أحد الجنود الألمان بالجنون لأنه قبل الحرب كان عنده عشيقة، لم يكن يعرف أنها يهودية. أخذوها إلى معسكر الاعتقال في مدينة أوسفاتيم. وقد سخر من زملائه قائلين له بأن الصابون الذي يغتسل به منذ أسبوع هو من جثة حبيبته، وأنهم يعرفون بهذا الأمر من مدير معهد التشريح في مدينة غدانسك، حيث كانت تُرسل الجثث إلى هناك لكي يصنعوا منها الصابون.

ثم وضعوا هذا الجندي في مصحة للأمراض العقلية في المانيا.

وبمرور الوقت اقتنع غالبية المؤمنين بأن الانجيل كتاب نظري وليس علمي، وأن قضية خلق العالم ليست واضحة تمامًا، غير أن هذا لا يغير في الأمر شيئًا، لأن الانجيل كتاب مليء بالكنايات، والكناية هى المفتاح لمعرفة نظام الكون وأقدار البشر، وأن كل هذا خاضع لإرادة عليا، وأنه لابد من وجود خالق لهذا. وكوّن البعض منهم طوائف دينية، تدافع عن أمور مختلفة. قال بعضهم إن الإنسان يمكنه أن يصير إلهًا. آمنوا بالبعث، وقاموا ببناء أرشيف ليتعرف منه البشر على بعضهم البعض عندما يحين وقت البعث. وامتنع بعضهم عن أكل اللحوم وشرب الخمر والتدخين، وراحوا ينتظرون الظهور المبكر للمسيح، كانوا يعتقدون أنهم سيدخلون الجنة. واعتقد آخرون أن النور كامن في كل إنسان، وأنهم عندما يسرفون في الصلوات فإن الروح المقدس ستساعدهم على إيجاد هذا النور. أشهر هذه الطوائف هى شهود يهوه، وطائفة البتيكوت، والهامشيون الذي كرهوا الكهرباء، وأضاءوا بيوتهم بمصابيح الكيروسين، ولبسوا الملابس السوداء. وكانوا يقولون إن التطور التقني يؤدي إلى ابتعاد الانسان على ربه، وأن القطيعة بين العبد وربه هو هدف أعداء المسيح الذين يسعون إلى قتل الروح في الإنسان. لم تكن شهود يهوه تؤمن بخلود الروح، لكن كانوا يؤمنون بأنهم سيعودون بعد الموت إلى الأرض، وسيعيشون حياة خالدة هانئة، وسيعود معم الاثنى وعشرين قديسًا الذي بنوا لهم بعد الحرب بيتًا في كاليفورنيا. وأن الناس سوف ينسون اللغات التي استعملوها في الدنيا، وسوف يتواصلون بقوة العقيدة والأفكار. وفي نهاية القرن تزايد عدد الطوائف التي تنبأت بنهاية العالم، والتي أرادت أن تعجل من يوم القيامة حتى تبني عالمًا جديدًا أفضل؛ لن يعيش فيه إلا من تدبر الأمر في الوقت المناسب.

وكلما كان عدد المسيحيين يقل، كلما تزايد عدد من يعتقدون بوجود إله، وضرورة البحث عنه. واعتقد آخرون أن الحياة على الأرض، أو أن الإنسان على الأقل قد نشأ بفعل قوى فضائية، وأن

كائنات فضائية قد هبطت على الأرض من زمن بعيد، ونشرت الاكسجين في الجو، أو أنجبت أحد القرود حتى يظهر على الأرض كائن ذكي. وفي عام 1954 اخترع أحد العلماء الأمريكيين نظرية السينتولوجيا، وقال فيها إن علم السينتولوجيا هو السبيل الوحيد والحقيقي نحو الحرية، وأنه يُمَكّن البشرية من التحرر. وكان يقول إن الله لم يخلق العالم، بل خلقه البشر. وقد خلقوه قديمًا في وقت كان فيه البشر خالدين بفعل عناصر روحية. وحدثت عند خلق العالم حادثة، فقد فيها البشر قوتهم، وفسدوا إلى درجة جعلتهم ينسون أنهم خالدين وروحانيين. وبإمكان السينيتولوجيا أن تحرر البشر من سجن المادة والمكان والزمان، وتساعدهم على اكتشاف أنفسهم، واكتشاف قوتهم التي فقدوها.

آمن الكثير من الناس في بداية القرن بالنظرية الوجودية وبالكهرباء، والاكتشافات، وعلم الأحياء، وتطور الثدييات، وعلم النفس، والفيزياء الاجتماعية التي كانوا يطلقون عليها علم الاجتماع. وقال العلماء إن الاستفادة من المعلومات والوسائل التي يقدمها العلم الحديث للبشرية ستساعد على بلوغ الإنسان الكمال، وبناء عالم جديد أكثر عقلانية وأكثر إنسانية. ومع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين انتشر علم تحسين النسل الذي اهتم بوسائل تحسين الجنس البشري. وكان علماء تحسين النسل يقولون إن بين البشر يوجد فضلًا عن الأفراد الأصحاء الكاملين أشخاص أقل قيمة، كالمجانين، والمجرمون، والسكارى، والعاهرات، وغيرهم. هؤلاء يعيقون تقدم الجنس البشري. فقدموا للحكومات اقتراحات بإصدار قانون يسمح بعزل المعاقين بدنيًا عن تطور الجنس البشري، وعزل كل من يعاني من عيوب وراثية أو طبيعية تحول دون اندماجه في المجتمع. وكانوا يقولون إنه يجب تطهير المجتمع من الأشخاص المعاقين بيولوجيًا حتى يتم استئصال العيوب، ويظل الجوهر سليمًا. وقاموا بإعداد إحصاءات، وأكدوا أن السيدة المدمنة على الخمر وهى في عمر الثالثة والثمانين سيكون لديها 894 حفيدًا، 67 منهم سيصبحون عتيدي الإجرام، و7 قتلة، و181 عاهرة، و142 متسول، و40 مجنونًا، و437 فردًا انطوائيًا. وقالوا إن 437 إنسانًا منطويًا سيكلفون المجتمع ما يساوي بناء 140 عمارة. وقال النازيون من بعدهم إن الإقصاء والإخصاء، والإجهاض القصري، والإقامة في المستشفيات المتخصصة يكلف المجتمع نقودًا، يمكن الاستفادة منها على نحو أفضل، وأنه من الأسهل التخلص من هذه العناصر المنبوذة اجتماعيًا من دورة تطور الجنس البشري بالقتل الرحيم. وبناء عليه نقلوا أكثر من 200 ألف رجلًا وسيدة إلى معسكرات الاعتقال، وقتلوهم في غرف الغاز. مكّن ذلك الألمان من تشغيل وتجربة غرف الغاز قبل أن يشرعوا في تنفيذ الحل النهائي لقضية اليهود. وكانت الأفراد المنبوذة اجتماعيًا تحمل على صدورها في معسكرات الاعتقال نجمة سوداء، وكان اليهود يحملون نجمة صفراء. وكان السجناء السياسيون يحملون مثلثًا أحمرًا، والمثليون الذين كونوا فصيلًا خاصًا ضمن المنبوذين اجتماعيًا كانوا يحملون مثلثًا أسودًا.

بعد الحرب العالمية الأولى بدءوا يبنون نصبًا تذكارية للجنود الذين سقطوا في الحرب حتى لا ينساهم أحد. كان المؤرخون يقولون إن النصب التذكارية للجنود كانت موجودة قبل الحرب العالمية الأولى، لكنها صارت في عشرينات القرن العشرين في دول أوربا الغربية رمزًا مشتركًا لإحياء الذكرى، وكان النحاتون سعداء بأن لديهم أعمال كثيرة. تم بناء النصب التذكارية في الغالب على

شكل ألواح حجرية أو مسلات، يعلوها تمثال لديك أو للقديس جورج أو صقر، حسب جنسية الجنود الموتى، وفي وسط النصب جندي يحمل سلاحًا، وعلى وجهه علامات الهدوء والتأهب، وفي اسفل النصب نساء وأطفال. كان علماء النثروبولوجيا وعلم الأعراق يقولون إن هذه النصب معروفة في الحضارة الهندأوروبية. كانت أسماء الجنود تُكتب حسب الترتيب الأبجدي. وكانت العبارات التي تكتب على النصب التذكاري غالبًا تقول: تذكر الوطن، والأبطال، والشهداء! وأحيانًا كان يكتب على النصب: الويل للحرب! وفي بعض المدن كان يقام النصب التذكاري أيضًا لجنود تم إعدامهم أثناء الحرب، أو حكم عليهم بالسجن المؤبد، لأنهم رفضوا الانصياع للأوامر. وفي عام 1916 تم إعدام جندي في مدينة جوفينتسكورت لأنه لم يكن يرتدي السروال المنصوص عليه، ورفض ارتداء سروال صديق له لقي حتفه لأنه كان متسخًا وملطخ بالدماء. وفي عام 1920 بنى الفرنسيون نصبًا تذكاريًا للجندي المجهول مع شعلة لا تنطفيء، ولاقى هذا النصب إقبالًا كبيرًا في انجلترا، وبلجيكا، وإيطاليا، وفي الدول الجديدة التي لم يكن لها تاريخ، مثل تشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا، الخ. النصب التذكاري للجندي المجهول كان يمكن أن يكون لجنديًا مات في انفجار قطع رأسه، أو لجنديًا أو أصيب بطلقة من عدو فدمرت شارة التعرف عليه، أو يكون لجنديًا اختفى وسط المعركة، أو لجنديًا مات غرقًا في إحدى المستنقعات. وحدث أن غاص أحد الجنود حتى ركبته في أحد المستنقعات، ولم يتمكن زملاؤه من سحبة خارجه، وكانت كل الخيول قد ماتت. وعندما مروا في نفس الطريق بعد يومين، كان الجندي مازال على قيد الحياة، ولم يكن يظهر منه سوى رأسه، وتوقف عن الصراخ.

وعندما خسر النازيون الحرب قامت الدول المنتصرة بتنظيم محكمة دولية. راح المحامون يفكرون في تسمية الحل النهائي لقضية اليهود، وفي خطط مختلفة للتخلص من الغجر والسلاف، الخ. فتوصلوا إلى مصطلح الإبادة الجماعية. كان المؤرخون يقولون إنه حدثت ما يقرب من ستين حالة إبادة جماعية في العالم خلال القرن العشرين. لكن لم تسجل جميعها في ذاكرة التاريخ. وقال المؤرخون إن ذاكرة التاريخ ليست جزءًا من التاريخ، وإن الذاكرة انتقلت من مجال التاريخ إلى مجال علم النفس، وتم عمل نظام جديد للذاكرة، حيث لم يعد الأمر يتعلق بذاكرة الأحداث، بل بذاكرة الذاكرة. إن تفسير الذاكرة نفسيًا من شأنه أن يجعل الناس يشعرون بأنهم مدينون للماضي، لكن لا يعرفون لمن على وجه التحديد وبما يدينون. أطلقوا على الحل النهائي للقضية اليهودية فيما بعد اسم الهولوكوست أو شِواء، لأن اليهود كانوا يقولون إن الأمر لم يتعلق بالإبادة الجماعية، بل بشيء آخر يتخطى الإبادة الجماعية بشكل يعجز البشر عن فهمه. ولم يرغبوا في مساواة الهولوكوست بمفهوم الإبادة الجماعية. وكانوا يقولون أن الأمر يتعلق بمسألة يهودية بحته، وشعر كثير من الناس بأن الإبادة الجماعية أصبحت قاصرة على اليهود، وقالوا إن ضحايا الإبادة الجماعية يفهمون تجربتهم على أنها شيء يعجز البشر عن فهمه، وأن اليهود قد استبدلوا الحقائق التاريخية بطريقة تفسيرها، وبالتالي ساعدوا في أن يفهم غالبية البشر الهولوكوست على أنه مشهد درامي من أحد الأفلام. وكان بعض الحاخامات يقول إن اليهود لم يقتلوا في معسكرات الاعتقال صدفة أو خطًأ، لكن الأمر يتعلق بتناسخ الأرواح التي ارتكبت ذنبًا ما في حياة أخرى، لأن قليل من الأرواح تحافظ على نقائها وصفاءها طيلة وجودها في الحياة الدنيا. وكان المؤرخون يقولون إن المجتمع الأوربي انتقل من المفهوم التقليدي للتاريخ كونه استمرار للذاكرة إلى مفهوم

الذاكرة التي تنسلخ عن التاريخ. وقال حاخامات أخرى إن الله انعزل عن العالم أثناء الهولوكوست، ولم يكن الأمر بمثابة عقاب، بل عودة العالم إلى حالته الأولى، قبل أن يضع الله له نظامًا، حيث كان الظلام يخيم على العالم. وقد نجت فتاة يهودية صغيرة من الموت أثناء الحرب بسبب أنها كانت تعزف على آلة الكمان فوق أحد الأرصفة في مدينة شتروتهوف لحن من أوبريت الأرملة السعيدة. وكان المؤرخون يقولون إن عصر تحقيق الحدث وصل إلى منتهاه، لأن التأريخ دخل عصر نظرية المعرفة.

بدأ النازيون يفكرون في حل نهائي للقضية اليهودية في عام 1940 عندما قرروا ترحيل جميع يهود أوربا إلى مدغشقر. ومن سمح لهم بالبقاء في أوربا كانوا فقط اليهود الذين لهم أقارب أغنياء وذوي نفوذ في أمريكا وفي الأرجنتين. وقدر النازيون عدد اليهود الذين لهم أقارب أغنياء وذوي نفوذ في أمريكا وفي الأرجنتين بما يقرب من عشرة آلاف، هؤلاء يجب وضعهم في معسكرات اعتقال خاصة، وما يقرب من تسعة مليون يهودي يجب إرسالهم إلى مدغشقر، حيث ستقام لهم معسكرات بإدارة داخلية خاصة. وهناك سيكون اليهود بين أقرانهم، وسينقرضون تمامًا بمرور الوقت، لأن الطبيعة ستلفظهم من رحمها، وينتهوا تمامًا دون اللجوء إلى نشر الدم الآري الذي اختلط بهم في أوروبا. ظهرت فكرة تهجير اليهود إلى مدغشقر لأول مرة في عام 1905 في كتاب لعالم لاهوت نمساوي، درس العهد القديم وعلم الحيوان، واقترح فرعًا للعلوم أطلق عليه علم اللاهوت الحيواني. وتوصل إلى نظرية تقول إن الله لا وجود له، وأن العالم خلقته آلهة من سلالة البشر، لكن كانوا يجيدون إرسال الإشارات إليكترونية والتخاطر، وكانوا خالدين وروحانيين. لكن بمرور الوقت بدءوا يختلطون بالبشر وبالحيوانات حتى صاروا عرضة للموت. وقال صاحب النظرية إن أقرب الأجناس للآلهة وأول الأجيال من أنصاف الآلهة هم الآريون، حيث ظلوا يحتفظون في أنفسهم ببقايا قوة اليكترونية ونيوترونات تخاطر. واقترح هذا العالم تهجير اليهود إلى مدغشقر، وبناء أديرة تربوية في ألمانيا يتم تخصيب النساء الألمانيات فيها بذكور آريين لتخصيب الإنسان الإله، الذي سيتواصل بالتخاطر، وبقوة الفكرة، وبالطاقة الكهربية. لكن النازيون قرروا في نهاية الأمر بأن تهجير اليهود إلى مدغشقر قد تكلف أموالًا طائلة هم في حاجة إليها لدعم المجهود الحربي. فقرروا في عام 1942 أن الحل النهائي للقضية سيكون عن طريق إبادة اليهود بكل الوسائل المتاحة.

كان الناس يسافرون في عربات نقل محكمة الغلق، وكانوا محبوسين بها طول الوقت. لم يكن بالعربات حمامات، وعندما كان أحدهم يموت كانت الجثة تبقى في العربة. بعض معسكرات الاعتقال كانت مخصصة للعمل، والبعض الآخر لإبادة اليهود الذين كانوا يهددون الجنس الآري. وبعد وصول الناس إلى معسكر الإبادة كان الألمان يقسمونهم إلى مجموعتين، أو إلى ثلاث مجموعات. الرجال كانوا منفصلين على السيدات، وأحيانًا كانوا يعزلون الأطفال أيضًا، كانوا يأمرونهم بالتجرد الكامل من ملابسهم، ويأخذونها منهم. كان الألمان أحيانًا يختارون منهم بعضهم كعمال جدد، أو مترجمين، أو امرأة شابة جميلة لتعمل خادمة، ويرسلون الباقين إلى غرف الغاز. كان الرجل الواحد منهم منذ مغادرته القطار وحتى وصوله إلى المعسكر يحتاج إلى عشر دقائق، والمرأة الواحدة خمسة عشر دقيقة، لأن شعر النساء كان ذو جودة عالية، وطويل،

ويحتاج لوقت أطول اثناء قصه. كانوا يستعملون الشعر كحشو للحشية، ولصناعة الشعر المستعار للدمى. وحتى لا يثور الناس فوق الأرصفة كان الألمان يقولون لهم بأنهم ذاهبون إلى منتجع صحي أولًا. أحيانًا كانوا يوزعون عليهم بطاقات دخول، ويقولون لهم إنهم يجب أن يسلموها في شباك التذاكر بالمنتجع. وكانت فوق البيوت المحيطة يافطات كُتِب عليها: بوفيه، شباك تذاكر، تلغراف، الخ. وكان الناس رغم الخوف يعتقدون بأنهم في محطة القطار، وأنهم يأخذونهم إلى مكان آخر، وأن خلع الملابس وقص الشعر هي لأسباب صحية، لأن الألمان كانوا يهتمون جيدًا بالتدابير الصحية. كانت إدارة المعسكر تحصل من الدولة على خمس ماركات مقابل كل مائة كيلوجرام من الشعر. وكانوا يقولون لهم بأنهم بعد الاغتسال سيذهبون إلى معسكر آخر لكي يعملوا فيه، لأن العمل الجاد هو الطريق الأفضل إلى الصلاح. كان الناس يدخلون إلى غرف الغاز وأيديهم مرفوعة عاليًا حتى يدخل أكبر عدد ممكن، ثم يلقون في النهاية بالأطفال الصغيرة إلى الغرفة حيث لا يحتاجون مكانًا كبيرًا. كانت تظهر أحيانًا فوق الأرصفة فرق موسيقية من فتيات سجينات، يرتدين أقمصة بيضاء، وتنورات بحرية زرقاء، ويعزفن أحد الألحان الأوبرالية.

ظهرت أول حالة إبادة جماعية في القرن العشرين في تركيا في عام 1915. قامت الحكومة بالقبض 600 أسرة أرمينية تعيش في القسطنطينية وإطلقوا النار عليها، كما قامت بنزع سلاح وقتل الجنود ذوي الأصول الأرمينية الذين كانوا يخدمون في الجيش التركي. وحصل جميع الأرمينيين على أوامر بالخروج من المدن والقرى خلال أربعة وعشرين ساعة، أو ثمانية وأربعين ساعة، وتمركزت الشرطة التركية عند بوابات المدن، وعندما يبدأ السكان يخرجون منها، يقوموا بإطلاق النار على الرجال. وأرسلوا النساء والأطفال إلى المنفى في مناطق صحراوية في بلاد الرافدين. وكان على النساء والأطفال أن يقطعوا ثلاثمائة أو خمسمائة كيلومترًا سيرًا على الأقدام بدون طعام، ولقي العديد منهم حتفه أثناء السير. وأصدر الفرنسيون والانجليز والروس مذكرة اتهام، ذُكِر فيها لأول مرة في التاريخ مصطلح جريمة ضد البشرية. وحمل معه إلى ألمانيا أحد الضباط الألمان الذي كان يعمل في التدريب بالجيش التركي 66 صورة من الإبادة الجماعية ضد الأرمن، وأرسلها إلى القيصر الألماني، وكتب له: أن على ألمانيا أن تتحرى الدقة عند اختيار حلفاءها، لأن لعنة تركيا سوف تصيبها. وفي عامي 1928 و1949 قام الروس بتهجير ستة ملايين مواطن من قوميات غير روسية، مثل التتار، والليتوانيين، والاستونيين، والأوكرانيين، والبولنديين، والألمان، والمولدافيين، واليونان، والكوريين، والمغول، الأوراتيين، والأكراد، والأنجوشيين، الخ. ولقي 30% منهم حتفه أثناء السير، و20% منهم مات في العام التالي. وكان الشيوعيون يقولون لاحقًا بأن الأمر لم يكن ترحيل، بل تعديل للبيئة الجغرافية، وخطوة أولى نحو وطن قوميّ جديد، لا يكون فيه مهمًا من يسكنه، وأين يسكن، بل كيف يسعى للعمل من أجل سعادة الآخرين.

وفكروا في عام 1924 في بناء مستوطنة لليهود على الحدود مع الصين خارج منطقة خاباروفكان في منطقة تصل فيها درجة الحرارة إلى 40 درجة تحت الصفر. وكان الشيوعيون يقولون إنها ليست مستوطنة، لكنها منطقة حكم ذاتي، يمكن لليهود العيش فيها وسط أبناء عشيرتهم، ويكون لهم إدارة مستقلة. وقاموا في عام 1944 بتهجير477 ألف شيشاني إلى كازاخستان في 12

ألف و525 عربة لنقل الحيوانات. مات منهم أثناء الطريق 190 ألف شيشاني من الجوع والبرد. وفي عام 1999 أقاموا معسكرات خاصة لمن شكّوا في أصولهم الشيشانية. وكان يطلق على تلك المعسكرات اسم معسكرات الإقامة المؤقتة. وفي عام 1948 اتهموا الصحفيين والأطباء والمهندسين ذوي الأصول اليهودية باللاقومية، وبالصهيونية، وبالفكر البرجوازي، وقتلوا الغالبية العظمى منهم، وأرسلوا الباقين إلى معسكرات الاعتقال. لكن الأتراك كانوا يقولون إن الإبادة الجامعية للأرمن لم تكن إبادة جماعية حقيقية، وكذلك اعتقد غالبية اليهود.

وكان علماء السينتولوجيا يقولون إن الإنسان في جوهرة خيّر، لكن هناك من هو أفضل من غيره. وقسّموا البشر إلى أربعة مجموعات. كان أفضلهم أنصار السينتولوجيا، لأنهم كانوا يعرفون أشياء يجهلها الآخرون. وضمت المجموعة الثانية غالبية البشر الذين لم يدركوا هذه الحقيقة بعد. وكان خُمس البشر عبارة عن أناس تم تصنيفهم على أنهم مصدر محتمل للمتاعب Potenial Trouble Sources. هؤلاء كان يصفهم السينتولوجيون بأنهم فقدوا عقلهم. واثنان ونصف في المائة كانوا عبارة عن Supressive Persons، وهؤلاء كانوا أناس يرفضون الحقيقة، ويَحُولون دون تحرير البشر. وفكر السينتولوجيون في 72 طريقة لكشفهم حتى يتم عزلهم عن الآخرين قبل تغيير العالم القديم. وكوّن السينتولوجيون فرقًا أمنية خاصة للكشف عمن يرفضون تحرير البشرية. كان يتم قبول أعضاء تلك الفرق لمدة مليار عام. وكان السينتولوجيون يقولون إن البشرية ستحصل على حريتها عاجلًا أم آجلًا، لكن الأمر سيستغرق وقتًا. وكانوا يقولون إن الإنسان سيصل إلى المعرفة في الحياة الدنيا، ويتأكد من عودته إلى الحالة الروحانية والى الخلود، لكن يجب أولًا التحرر من سجن المكان والزمان. والإنسان المتحرر من سجن المكان يمكنه أن يسافر في الزمن، ويعود لمدة 75 مليون عامًا، فيدرك جميع جراحه، التي عاناها طوال هذه الفترة. وأن الجراح ستكون السبب في أن يفقد طاقته. وعندما يريد أن يسترجع طاقته التي فقدها بسبب آلامه، فعليه أن يتخلص من الآثار التي تحمل بقايا الذاكرة البشرية. وعندما يتخلص من تلك الآثار، ومن الذاكرة، ومن كل العبء البشري يمكنه أن يسافر عبر الزمن ليصل إلى الحقيقة.

وصدر أول قانون إخصاء العناصر عديمة النفع والمنعزلة اجتماعيًا في عام 1907 في الولايات المتحدة الأمريكية. سمح القانون بإخصاء عتاة المجرمين والمرضى النفسيين. وتم تعديل القانون في عام 1914 بناء على رأي علماء الأمراض العقلية ليشمل لصوص الدجاج من ذوي الأصول الزنجية والهندية. وكانوا يقولون إن لصوص الدجاج من أصول بيضاء يمكنهم العثور على طريق التوبة، والانخراط في حياة المجتمع بالعمل الجاد الدءوب. وصدر قانون الإخصاء في سويسرا والدنمارك عام 1929، وفي النرويج في عام 1934، وفي فنلندا والسويد عام 1935 وظل ساريًا في السويد حتى عام 1975، وتم إخصاء 13 ألف و810 مواطن سويدي، و48 ألف و955 مواطنة سويدية بناء على قرار المحكمة. وفي البلاد ذات التقاليد الكاثوليكية لم يكن فيها قوانين خاصة بتحسين النسل، لأن الكاثوليك كانوا ضد نظرية التطور، والإخصاء، والإجهاض. كانوا يقولون إنه ليس من حق أحد أن يمنع الإنسان من شيء منحة الله إياه، لكن البروتساتانت كانوا يقولون إن العقل يتطور، وأن رفض التطور أمر تقليديًا عند الكاثوليك، وأنهم يؤكدون على هذا منذ أربعمائة عام. وفي الدول الشيوعية كان يكفي رأي الطبيب لإخصاء الأفراد المهمشين، وفي يوغوسلافيا

ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا كان يتم إخصاء الألبان والغجر من باب العقاب، لأن حكومات هذه الدول كان تعتقد أن أعداد الألبان والغجر تتزايد في دول المعسكر الاشتراكي بشكل غير مقبول. صدر قانون الإخصاء في ألمانيا في عام 1933 عندما وصل النازيون إلى الحكم. وأول ما قاموا بإخصائهم كانوا الأطفال، وكانوا يطلقون عليهم Rheinlanbastarde، أي أبناء زنا من راينلاند. كان هؤلاء أطفال لأمهات ألمانيات وآباء زنوج من الجيش الفرنسي، الذي احتل منطقة راينلاند في ذلك الوقت. وتم إخصاء 514 من أبناء الزنا من راينلاند، وإرسالهم إلى مصحات للمرضى النفسيين. واتُهمت أمهاتهم بالتعاون مع الأعداء وقلب نظام الحكم في ألمانيا، وأرسلوهن إلى معسكرات الاعتقال في مدينة رافينسبروك. كان معسكر رافينسبروك معسكر اعتقال خاص بالسيدات، وفيما بعد كانوا يضعون فيه أيضًا مع النساء المتهمة بقلب نظام الحكم أسرى الحرب، أو العمال من الدول المحتلة الذين كانوا يعملون في المصانع والشركات الألمانية. ولقي 92 الف و350 امرأة حتفها في معسكرات رافينسبروك. وكان لدى الأطباء الألمان في معسكر الاعتقال في مدينة داخو غرفة ذات ضغط منخفض، كانوا يدرسون فيها سلوك الأطفال المرضى بالصرع، ويحاولون التعرف على الفرق بين الصرع الوراثي وغير الوراثي. وأسس الأمريكيون معهدًا لتحسين النسل في عام 1910. وفي عام 1922 أرسل مدير المعهد إلى الحكومة الأمريكية قائمة بأسماء المواطنين العاجزين على التأقلم اجتماعيًا، والذين ينبغي إخصائهم بغرض الحفاظ على المجتمع ليبقى معافى ورشيدًا. كانت القائمة مقسمة إلى عشرة مجموعات طبقًا لمعايير طبية واجتماعية مختلفة. وكانت تضم مواطنين يعيشون عالة على المجتمع، ومواطنين ليس لديهم إقامة دائمة أو دخل كاف، ومواطنين مصابين بعيوب خلقية، أو أمراض مزمنة أو مُعدية، ومواطنين ضعاف النظر أو لديهم ضعف في السمع، وتضم أيضًا مشردين، ومجانين، ومرضى نفسيين، ومجرمين، ومومسات، ومثليين، ومرضى بسيلان الدم، ومدني كحول، ومتعاطي مخدرات، ومرضى السل والصرع. قام الأطباء أيضًا بدراسة الفروق بين الصرع عند البشر وعند الأرانب. وهى دراسة طلبتها منهم إدارة المعسكر في فيينا. وقامت إدارة معسكر ماتوهاوزن للاعتقال في فيينا أيضًا بطلب جثث لصالح المعهد التشريح وكليات الطب. كان يجب أن تكون جثث حديثة الوفاة وسليمة. كان معهد التشريح يطلب سنويًا ما يقرب من 460 جثة سليمة، كانت غالبيتها مخصصة للمشرحة في ساعات تدريس علم التشريح. وفي النرويج وبعد الحرب كانوا يأخذون الأطفال من أب ألماني الأصل من أمهاتهم، ويرسلونهم إلى معاهد مخصصة للمرضى النفسيين. كان العديد من علماء البيولوجيا، وعلماء الأجنة، والعلماء النفسيين، وعلماء الأنثروبولوجيا على قناعة بأن علم تحسين النسل من أعظم مكاسب العلم الحديث بعد الكهرباء. وكما فعلت الكهرباء، فإن علم تحسين النسل أعاد تشكيل حياة الإنسان، ومكن العالم من الدخول إلى عصر جديد. فقد أعاد علم تحسين النسل تشكيل القاعدة البيولوجية للمجتمع بشكل جذري، وساعد العالم في الدخول إلى عصر جديد. غير أن بعض علماء النسل كانوا يقولون إن الإخصاء لا طائل منه، وقالوا إننا نحتاج إلى اثنين وعشرين جيلًا حتى يقل عدد المجانين والمرضى النفسيين بنسبة 0،9%، وتسعين جيلًا آخر حتى تستقر حالة بدلاء المجانين والمرضى النفسيين بنسبة واحد في المائة ألف. وكانوا يقولون إنه من الضروري العثور على وسيلة أسرع لتحسين صحة البشر.

ومع تحرير المرأة واكتشاف موانع الحمل وصمامات المحيض والحفاضات ذات الاستخدام الواحد تناقص عدد الأطفال في أوربا، وزاد عدد لعب الأطفال، ودور رعاية الأطفال، وملاعب الأطفال، والكلاب والجرذان، وما شابه. كان علماء الاجتماع يقولون إن الطفل صار مركز اهتمام الأسرة كلها، وعنصرها الأكثر تأثيرًا. كان الأطفال يرغبون في الاستقلالية، وأن تصبح لهم شخصيتهم الخاصة، ورفضوا ارتداء القباعات أو الأحذية التي كانت لأشقائهم، وكانوا يطلبون قباعات جديدة، وأحذية جديدة، وأقلام تلوين، ومكعبات، ودمية لدب أو لفتاة صغيرة. وأنتجت الشركات في أوربا في القرن العشرين دميًا تزيد عما أنتج في القرن التاسع عشر باثنى عشر ألف ونصف الألف مرة، وبدلًا من الخشب أو نشارة الخشب كانوا يصنعونها من المواد الصناعية. وبمرور الوقت تعلمت تلك الدمى الحركة والكلام، وصارت بالتدريج أكثر استقلاليه، وكانت تقول: صباح الخير، وبالهنا والشفا. وبعضها كان يجيد البكاء، والتجشؤ بعد الأكل، وأيضًا غناء بعض المقاطع الأوبرالية.

كانت أشهر عروس تُسمّى باربي. بدأ إنتاجها في عام 1959. كان طولها 30 سم، ولديها ثديان كبيران، ومؤخرة كبيرة، وأرداف نحيفة. كانت أول دمية تتصرف مثل الكبار. ثم بدأت تتحدث، وتقول: عندي في المساء موعد مع صديقي، وماذا سأرتدي عندما أذهب للسهرة؟، وتقول أيضًا: ألا تريد أن تأتي معي لشراء فستان جديد؟ كانت في باديء الأمر ترتدي ملابس راقصة باليه أو إحدى الممثلات، ثم صارت بعد ذلك مضيفة جوية، ومدرسة، وطبيبة بيطرية، وسيدة أعمال، ورائدة فضاء، ومرشحة لمنصب رئيس الجمهورية. وظهرت الدمية باربي في عام 1986 في ملابس مخططة، وقبعة مقلمة كان يرتدونها في معسكرات الاعتقال. احتجت على ذلك مختلف جمعيات المحاربين القدامي؛ وقالت إنها سخرية من آلام الناس وذكرى الضحايا. ودافع المنتجون، وقالوا إنها على العكس طريقة مناسبة لتعريف الأجيال الجديدة على ما عاناه البشر في معسكرات الاعتقال، وأنه عندما تشتري الفتيات تلك الدمية بزيها المقلم سوف يتفاعلون معها، وعندما يكبرون في السن سيفهمون بسهولة حجم المعاناة. وقام الألمان في عام 1998 ببناء نصب تذكاري ضخم لضحايا الهولولكست في مدينة برلين، تسهُل رؤيته من بعيد. كانت وظيفة مثل هذا النصب فضلًا عن الاحتفال بأحداث تاريخية معينة، أيضًا تحذير الأجيال القادمة. واعتقد بعض الناس أن العمل الفني ليس الطريقة المثلى للتعبير عن الهولوكوست الذي تجاوز كل القواعد الأخلاقية. وقال البعض إن العمل المثالي هو العمل الذي يقول بأنه لا يمكن وصف الهولوكوست. وقدم أربعمائة وخمس تسعون فنانًا تصميمات من شأنها تحذير الأجيال القادمة. واقترح احدهم تصميم نجمة سداسية بها ثمانية ألوان، تدور حول نفسها. واقترح آخرون بناء إطار سيارة روسي ضخم، توضع فوقه عربات من معسكرات الاعتقال، واقترح آخر بناء محطة حافلات ضخمة، تقف بها حافلات حمراء، وقائمة بمحطات الوقوف، بحيث تكون معسكرات الاعتقال هى المحطة الأخيرة، واقترح غيرهم بناء تسعة وثلاثين عامودًا من الفولاذ، يكتب عليهم كلمة لماذا بكل اللغات:

WARUN? WAAROM? VARFØN? WHY? POURQUOI? PERCHÉ? DLACZEGO? CŪR? KUIDAS? MIKSI? MIÉRT? ZAKAJ? KODÉL? HVORFOR? JIATÍ? PSE?

NIÇIN، الخ.

وقال البعض إنه لا يجب عمل نصب تذكاري فقط لضحايا الهولولكوست، ولكن لضحايا عمليات الإبادة الجماعية، لأن ذاكرة التاريخ ستظل بهذه الطريقة حية، وخلاف ذلك ستكون مجرد أكوام من الفولاذ أو الحديد، تصبح بدون قيمة بعد بضعة عقود. وقال بعض المؤرخين إن موضوع إقامة نصب تذكاري محل خلاف، لأنه في حد ذاته غير كاف ليكون ذاكرة لحدث ما، ولن يحول دون تكرارها. وقدموا أمثلة على حماية ذاكرة العالم، والتي أدت إلى مزيد من الصراعات والحروب.

كان اليهود الذين نجوا من الهولوكوست يقولون إن النصب التذكارية والمتاحف وغيرها، رغم ما لها من أهمية، إلا أن الشهادة المباشرة هى الأفضل. فبدءوا يترددون على المدارس، ويحكون للتلاميذ عما شاهدوه. وتساءلوا عن كيفية الحفاظ على ذكرى الهولوكوست بعد موتهم. وأوصت الجمعية السويدية للمساجين اليهود السابقين نقل شهاداتهم إلى رجل شاب، يتعلمها عن ظهر قلب، ثم يزور المدارس، ويحكي للتلاميذ أنه كان يعرف رجلًا عاش التجربة مباشرة. وقبل أن يموت ينقل شهادته لشاب آخر، الخ. وخاطب اليهود الرأي العام في عام 1945، وطالبوا بتأسيس دولة اسرائيل على أرض فلسطين، حيث يعيش هناك اليهود وسط أقرانهم دون الخوف من هولوكوست جديد. فحاربوا ضد العرب والانجليز الذي كانوا يحتلون فلسطين في ذلك الوقت، وقاموا بعمليات اغتيال، ونظموا موجات هجرة سرية. وأعلن الانجليز في عام 1939 عن حصص خاصة بالهجرة لتخفض من عدد المهاجرين اليهود بنسبة 75%، وأصدروا قانونًا يمنع اليهود من شراء الأراضي. وفي يوليو عام 1947 وصلت إلى فلسطين سفينة تحمل مهاجرين يهود غير شرعيين قادمين من ألمانيا، فأعادهم الانجليز من حيث أتوا. وفي عام 1938 طالبت الحكومة السويدية السلطات الألمانية بوضع حرف J في جوازات سفر اليهود حتى تتعرف عليهم الشرطة السويدية على الحدود، وعلى كل من لا تظهر عليه سمات الرجل اليهودي. كان اسم السفينة التي جاءت إلى فلسطين EXODUS، على اسم احد كتب العهد القديم. وسافر على متنها 4500 يهوديًا نجوا من معسكرات الاعتقال، وأرادوا العودة إلى الأرض الموعودة.

وفي شهر نوفمبر أعلنت منظمة الأمم المتحدة عن قيام دولة اسرائيل. سافر العديد من الأوروبيين إلى اسرائيل لكي يروا نشأة الدولة الجديدة. وكان الشباب الأوربي يسافر للعمل في المستوطنات الذراعية اليهودية التي كانوا يطلقون عليها الكيبوتس، حيث يعمل الجميع من أجل سعادة الجميع. كان كل شيء فيها مشتركًا، وكان الجميع ينشدون الأغاني معًا. وكانت مكاتب السفر الاسرائيلية توزع ملصقات عليها صور شباب يتطلعون بوجوه قاسية الملامح إلى الشمس وهى تشرق على القدس، وأسفل الملصق عبارة تقول: لم تذهب آلامنا هباءً، اقتنصوا فرصة الأسعار المخفضة.

كان أخصائيون في علم الجنس يقولون إن الدمية باربي تعد أول وسيلة لتأسيس الهوية النسوية عند صغار الفتيات، وأن النجاح الذي حققته الدمية يثبت وجود النشاط الجنسي عند الأطفال. وكثر الحديث عن النشاط الجنسي عند الأطفال في القرن العشرين عندما وجدوا أن الفتيات

الصغار يطلبن من ابيهم شراء طفل دمية، وأن هذا الطفل كان بديلًا عن العضو الذكري، لأن الفتيات الصغيرات كن يردن أيضًا أن يصبح لديهن قضيبًا، وأن الدمية التي يشتريها لها أبوها تُعدّ بمثابة قضيب لها. كانت الدمى تُنتَج في البداية على شكل فتيات صغيرات، ثم بدءوا في إنتاج دمى على شكل صبيان، وكانت لدى الدمية الأنثى بين فخديها فتحة مهبل، والدمية الذكر قضيب. وبدءوا في سبعينات القرن في إنتاج دمية زنجية، ودمية ببشرة بنية اللون. كان يشتريها من الآباء كل رجل أبيض يريد أن يقول للعالم بأنه ضد التفرقة العنصرية. كانت التفرقة العنصرية إحدى نظريات القرن التاسع عشر التي تقول إن الأجناس البشرية لديها سمات ثابتة، تلازمها في كل مراحل تطورها، وأن الجنس الأكثر تطورًا هو الجنس الأبيض الذي لديه ميول طبيعية لتنظيم المجتمع، وللتفكير المجرد والسمر الجماعي. وكان الإنسان العنصري هو من يخاف من أن اختلاط الأجناس يهدد الانسان الأبيض، ويضعف الصفات الجينية التي تمكن الانسان الأبيض من قيادة البشرية. ولم يكن الشخص الذي يناهض اليهود يُوصف بالعنصرية، بل بمعاداة السامية. لأن اليهودي لم يكن يُصنّف على أنه إنسان وضيع مثل الزنوج والهنود الغجر وغيرهم، بل كان اليهود يُصنفون على أنهم شاذون عن الطبيعة. وظهرت كلمة معاداة للسامية لأول مرة في نهاية القرن التاسع عشر، وكانت تطلق على الشخص الذي لا يوافق على أن يسيطر اليهود على العالم، ويدعو أقرانه إلى التصدي لهم. وصارت العنصرية مشكلة اجتماعية كبيرة بعد الحرب العالمية الثانية، لأن أقليات عرقية كبيرة استقرت في البلاد الأوربية الغنية. وكان على مجتمعات هذه الدول أن تحتويهم. كان هناك نموذجان سياسيان لاحتواء الأقليات العرقية وتكاملها، واستيعابهم داخل هذه المجتمعات. تمت عملية التكامل في دول كانت تعتقد أن المجتمع الوطني يمكنه أن يقبل تعايش نموذجين من ثقافتين مختلفتين، ومن الأفضل ألا يختلط أحدهم بالآخر، وأن يحافظ كل منهما على هويته. قامت بعملية الاستيعاب دول كانت تؤمن بالعالمية، وتقول بأنه يوجد نظام اجتماعي أعلى، تندرج تحته الهوية الثقافية والعرقية. وتبنى عملية التكامل دول تدين بالمذهب البروتستانتي، مثل انجلترا والسويد، وغيرها. ودعت إلى عملية الاستيعاب دول ذات تقاليد كاثوليكية مثل فرنسا، وإيطاليا، أو بلجيكا. وظل النموذج الاستيعابي أكثر نجاحًا من النموذج التكاملي، لأنه لم تكن هناك قلاقل عرقية في الدول التي تبنته، مقارنة بانجلترا وأمريكا، وكان عدد الزيجات المختلطة فيها أكبر من غيرها. لكن بنهاية القرن، ومع بداية الحديث عن العولمة والمواطنة العالمية، تراجعت فكرة العالمية، وأصبح كل فرد يرغب في أن يكون له هويته الخاصة، وأن يفخر بأصله ثقافيًا، وليس مجرد انتماء، وأن يعيش في تناغم مع التقاليد، وأن يعود إلى جذوره، الخ.

أصبح الجنس في القرن العشرين قضية في غاية الأهمية في أوربا، وأهم من الدين، وربما صار مهمًا شأنه شأن الأموال. وأراد الجميع ممارسة الجنس بطرق مختلفة. كان بعض الرجال يدهنون أعضائهم الجنسية بالكوكايين حتى تطول عملية الانتصاب قدر الإمكان، رغم أن الكوكايين كان ممنوعًا. وبعد الحرب العالمية الثانية بدأت تظهر في الأفلام مشاهد، يضاجع فيها الأبطال والبطلات بعضهم البعض، وكان هذا الأمر مستهجنًا حينها، لأن كثير من الناس كانوا يؤمنون بوجود الله، وكان مشاهد المضاجعة تظهر تلميحًا بصورة الفراش، أو الساعة، أو السماء، ثم تطفأ الأنوار فجاة. كانت النساء تريد أن تشعر بهزة الجماع في كل وقت، وكان الرجال منزعجون

من هذا الأمر، وكانت لديهم مشاكل في الانتصاب، فجربوا مختلف طرق الإثارة. فراحوا يترددون على أطباء التحليل النفسي كي يتعرفوا على أسباب المشكلة، إن كانت تعود إلى مشاكل عانوا منها في طفولتهم ولا يعرفونها. ظهر التحليل النفسي في عام 1900 على يد أحد أطباء الأعصاب النمساويين الذي أراد دراسة العمليات النفسية، وتحديد عناصرها بواسطة العقل الباطن. وقال إن الاضطراب العصبي والهستريا وغيرهما هى أعراض لمشاكل جنسية من أيام الطفولة. وابتكر لذلك طريقة جديدة ومفاهيم جديد، مثل تعديل النشوة، والاسترخاء من الخلط، والرقابة، والأنا، والأنا العليا، والغريزة الجنسية، والعقدة التي يمكن أن تكون إما إخصائية أو أوديبية. وفر من النازيين في عام 1938 وذهب إلى لندن، ولقيت شقيقاته الأربع حتفهن في معسكرات الاعتقال. وعندما كان المريض يعرف أسباب تشنجه وتصلب أعصابه، تتحسن حالته على الفور، لأنه كان أمرًا طبيعيًا. كان الشيوعيون يقولون إن الذين عاشوا في مجتمع شيوعي لم يكن لديهم رغبات جنسية، لأن قمة السعادة ينالها الإنسان من العمل الجيد. في حين كان الناس في المجتمع الرأسمالي يتم استغلالهم، ولم يشعروا بالسعادة من عملهم، لذلك لجأوا إلى مختلف البدائل. وكان الشيوعيون يقولون بأن الجنس لا يمكنه جلب الرضى دون الحس الطبقي، حتى لو مارس الشخص الجنس ليلًا ونهارًا. وكانوا يتخوفون من تردد الناس على أطباء التحليل النفسي واستعمال البدائل، حيث أن هذا من شأنه تهديد تناغم المعسكر الاشتراكي. ولم يشجعوا على قراءة الكتب الوضيعة، وارتداء الملابس الصاخبة، وعمل تسريحات شعر شاذة، ومضغ اللبان، الخ. واخترع اللبان صيدلاني أمريكي. بدأ بيع اللبان في أوربا في عام 1903، لكنه انتشر بشكل أساسي في الخمسينات والستينات. وكان يمضغه بشكل رئيسي الشباب الذين أرادوا تأكيد هويتهم في المجتمع، وإثبات أن أسنانهم مازالت قوية دون حشو. كان نجوم السينما يمارسون الجنس في حقول القمح في الخمسينات، لأن حقول القمح كانت تعبر عن الشباب والحياة الجديدة التي تنتظر أبطال أفلام الشباب، وكان الرياح تصفر وسط السنابل، والشمس تميل نحو المغيب، وصدور النساء منتفخة. وفي الستينات كان أبطال الأفلام يمارسون الجنس وسط أمواج البحر، على شواطيء المحيط الهادىء، لأن المشهد كان رومانسيًا، والرمال تلتصق بأجسادهم، وكانت مؤخرتهم عارية، والضباب يتصاعد فوق الماء. وظهرت في الستينات أيضًا أولى الأفلام الإباحية التي مارس الأبطال فيها الجنس طوال الوقت وفي أماكن عديدة. وراحت الصحفيات المخضرمات تصفن للفتيات في المجلات المخصصة لهن أفضل طريقة لإثارة العضو الذكري عن طريق الفم، الخ. وراح الصحفيون المحنكون يصفون للشباب في المجلات المخصصة لهم أفضل طريقة لتأخير قذف المنى، وكيف يضع الواقي الذكري دون أن تلاحظه صديقته. وصممت شركات الدعاية إعلانات عن الواقي الذكري، وفكرت في طرق مناسبة لمخاطبة الفتيات. فابتكرت إحدى شركات الدعاية كليب دعائي تمارس فيه الجنس شخصيات من القصص الخيالية، مثل سنووايت، وسندريلا، والأميرة الهاربة، وشهرزاد. وزادت مشاهد ممارسة الجنس في الأعمال الفنية السينمائية. وكانوا يقولون إن فيلم كهذا يعبر عن علاقتنا الجسدية بالحب، وأن هذا أمر لا غضاضة فيه، لأننا بذلك نتمكن من التفكير بصورة أفضل في دور النكاح في السياق السياسي والثقافي والأنثربولوجي، وأيضًا في دوره في حياة البشر. وكان أبطال الأفلام في السبعينات يمارسون الجنس في السيارات، لأنه كان أمرًا جديدًا، وإيقاع الحياة صار سريعًا. وكان المشاهدون الشباب ممن لم يكن لديهم سيارة بعد يتطلعون إلى تجربه الأمر. وبدأ الرجال يستلقون، والنساء تعلوهم،

لأن المرأة صارت شخصية حرة. وفي الثمانينات ظهر الجنس عبر الهاتف. كان الرجال يتصلون بمختلف الأرقام، ويسمعون النساء تخاطبهن عبر الهاتف وتقلن: أشعر بماء يتدفق مني، ادخله بقوة قدر استطاعتك، أو اعطني اياه لأجربه، الخ.

انتشر التحليل النفسي في أوربا الغربية بقوة في الستينات والسبعينات، وكان يطلبه أناس أصحاء، لكنهم كانوا يشعرون بقلة الحيلة وبالوحدة، ويريدون أن يعرفوا إن كانوا يعانون من مرض ما. وعندما كان المريض يتغلب على حياءه ويسترخي، يحكي لطبيب التحليل النفسي عن طفولته. كانت هذه مرحلة تسمى بمرحلة التحول، لأنه يبدأ في إفشاء أسرار علقت في ذاكرته منذ الطفولة. فلم يكن يعرف أن الأشياء تبقى في الحياة الروحية، وأن ما حدث له يومًا ما يمكن أن يسقط مؤقتًا من الذاكرة، لكنه يظل بها. وهكذا يُمَكّن المريض طبيب التحليل النفسي من التقاط خيوط تمكنه من تتبع المشكلة. تراجع الذاكرة كان يحدث عندما يأتي الفتى أو الفتاة بأمر مخالف للأخلاق، فيعلق الأمر في العقل الباطن، وعندما يكبر ويصير بالغًا، تبدأ الأحلام المزعجة تراوده، وهذا يدلل على أنه يعاني من مشكلة. وكانت عقدة أوديب تظهر عندما تقول إحدى الفتيات بأنها تريد أن تقتل أمها لكي تمارس الجنس مع أبيها، أو عندما يقول الفتي بأنه يريد أن يقتل أبيه ليمارس الجنس مع أمه، وهما يعلمان أن هذا غير مسموح به. وثار جدل بين المتخصصين حول عقدة أوديب، لأن بعضهم كان يعتقد أنها أمر عام، وقال البعض الآخر بأنها لا تظهر إلا في بعض الثقافات، في بلاد مثل فيينا، الخ. وفي عام 1918 انعقد في بودابست مؤتمر حول التحليل النفسي ودوره في وقت الحروب. واتفق غالبية أطباء التحليل النفسي على أن الاضطراب العصبي وقت الحروب مثله مثل الاضطراب العصبي وقت السلم. واقترح العديد من الأطباء النفسيين معالجة الاضطراب العصبي بالصدمات الكهربائية. وقاموا بمعالجة الجنود بالصدمات الكهربائية، إلى أن يعلن المريض أن قد تعافى تمامًا. لكن أطباء نفسيين آخرين لم يوافقوا على هذه النظرية وقالوا إن الصدمات الكهربائية تدفع بالمشكلة النفسية إلى اللاوعي، وأنها لا يعالجها. وقال آخرون إن بعض الجنود يدّعون المرض النفسي حتى يقضوا فترة خدمتهم العسكرية في المصحة النفسية، يلعبون الورق مع غيرهم من المرضى مقابل سجائر أو نقود.

حدث تطور كبير إبان الحرب العالمية الأولى في عمل منظمات حقوق الإنسان والجمعيات الخيرية، لأن الحرب العالمية الأولى كانت حربًا مبتكرة من نواح عديدة.

فقد كانت الجهات المشاركة فيها تمتلك وسائل قتالية وتدميرية كبيرة، ومكنتها الخدمة العسكرية الإلزامية من إرسال عدد كبير من الجنود إلى الحرب. وأدت المدافع بعيدة المدى والسفن الهوائية والطائرات إلى محاربة المواطنين المدنيين، والوصول بنجاح إلى عمق الدول من أجل كسر عزيمة العدو. ووقعت اثنى عشر دولة في عام 1905 على معاهدة تلزمهم بحماية الجنود الجرحى بغض النظر عن الجهة التي يحاربون من أجلها، لأن الجندي لا يتمتع فقط بعضوية في إحدى المجتمعات، لكنه أيضًا لدية هوية شخصية مستقلة. لم يوافق بعض الجنرالات على هذه المعاهدة، وحذروا من مسألة الهوية الشخصية المستقلة، وقالوا إن الجنود هم أبناء الوطن، وعليهم الانصياع لأوامر أوطانهم. في حين قال معارضو الحروب ودعاة النزعة الإنسانية بأن ولاء الفرد يجب أن يكون للبشرية وليس للوطن. من جهة أخرى كان بعض أنصار

النزعة الإنسانية يقولون إن الوطن يصبح بديلًا عن الإنسانية إن تعرض للخطر. ووقعت بعض الدول في عام 1929 على إعلان يلزمهم بحسن معاملة أسرى الحرب، وأن يمكنوهم من استلام رسائل وطرود من أسرهم، ومن زوجاتهم، ومن الجمعيات الخيرية، ومنظمات حقوق الإنسان. وفي عام 1941 أصدرت الحكومة السوفيتية إعلان تؤكد فيه أنها لا ترحب بمساعدة منظمات حقوق الإنسان للجنود السوفيت الأسرى، ولا أن يُوصلوا إليهم الرسائل ولا الطرود. وقال الجنرالات السوفيتون إنهم هاربون من الخدمة العسكرية، وكل ما لديهم هو لقب جندي من الاتحاد السوفيتي، لأن الجندي السوفيتي يفضل الموت على أن يسقط في الأسر. وكانت منظمات حقوق الإنسان تقدم المساعدات العاجلة، وتمد الجيوش بالأدوية والضمادات، وتقوم بالتفتيش على معسكرات الأسرى حتى تتأكد من حسن معاملة الأسرى، وكانت جمعية الصليب الأحمر من أهم هذه المنظمات. في عام 1942 عَلِم مندوبو الصليب الأحمر في سويسرا بغرف الغاز في معسكرات الاعتقال، لكنهم قرروا عدم نشر التقرير، لأنهم خافوا من أن يستغلها الألمان لتشويه سمعة منظمات حقوق الإنسان، ومنعها من الدخول إلى معسكرات الأسرى والمستشفيات. وقام الألمان في عام 1944 بتصوير فيلم تسجيلي عن الحياة في معسكر الاعتقال في مدينة تيرازين، وسلموه لمندوبي الصليب الحمر ومختلف المنظمات الدولية. لعب في الفيلم 270 ممثلًا و1600 طفلًا، وبضعة آلاف من الكومبارس، لم يكن بينهم أحد ذو شعر فاتح اللون كي لا يبدو أنه ليس يهوديًا. وأطلقوا على الفيلم اسم: الحياة جميلة في تيرازين. وكان اليهود فيه يترددون على المقاهي، ويزرعون الخضروات في مزارع الخضروات، ويلقون بالسهام في ماء حمامات السباحة، ويذهبون إلى البنوك لأستلام الأموال، وإلى مكتب البريد لاستلام الطرود، ويستمعون إلى العروض الأوبرالية، ويتناقشون في المكتبات حول مفهوم الحضارة الأوروبية. وعندما انتهوا من تصوير الفيلم، أعد الألمان إحدى عشر ناقلة، وأرسلوا كل من ظهر في الفيلم إلى معسكر الإبادة في مدينة أوسفياتيم. وعندما عاد أسرى الحرب السوفيت بعد انتهاء الحرب، أرسلتهم الحكومة إلى معسكرات الاعتقال، وفرضت عليهم الأشغال الشاقة حتى يكفروا عن نقص روحهم القتالية أثناء الحرب. في الحروب السابقة مات من الجنود بسبب الأمراض المختلفة والأوبئة خمسة أضعاف من مات في الحرب، وتغير هذا العدد في الحرب العالمية الأولى بفضل أنشطة منظمات حقوق الإنسان، والتقدم في علم الجراحة والأسلحة الحديثة، الخ، وكان هذا أمرًا جديدًا أيضًا.

كان النازيون الشيوعيون يقولون إنه من الضروري بناء عالم يتناسب مع النظام الطبيعي الجديد. ولاحقًا قال المؤرخون وعلماء الأنثروبولجيا إن الشيوعية والنازية استبدلتا العقيدة الدينية بالعقيدة الثورية، وأن الناس آمنوا بالشيوعية والنازية لنفس الأسباب، وأقواها على الإطلاق شعورهم بأنهم من المُختارين، وأن مصير العالم القادم في أيديهم. وكان النازيون يعتقدون أن العالم القادم سيكون متناغمًا، ومكونًا من أفراد قوية وفدائية ومتحدة، وأن الاهتمامات المشتركة والتقارب بين الجميع سيشكل حاجزًا، يحول دون حالة التفكك الذي أوصل ذوي النزعة الإنسانية والتنوريون العالم القديم إليها. لكن الشيوعيون كانوا يعتقدون أن جميع المواطنين في العالم الجديد سيكونوا قادرين على التناوب فيما بينهم، وأن الناس سيشكلون وحدة واحدة غير متنافرة. ولن يكون لأحدهم مصالح خاصة، لأن كل شيء سيكون مشتركًا، وأن هذا سيمنع المجتمع من التفكك الذي حدث للعالم القديم بفضل المصالح الأنانية للطبقات الحاكمة. وعبر

البعض عن ضرورة وجود الارهاب، لأنه هو الوسيلة الوحيدة لمحاربة الديموقراطية التي تستنفر كل شيء لتجعل الناس مثليين وفوضويين وطفيليين وأنانيين ومدمنى خمور، الخ.

فقاموا باضطهاد المثليين، والطفيليين، والسكارى، وأجبروا السكارى في روسيا الشيوعية على السير في الميدان كل يوم أحد وهم يحملون يافطة كُتِب عليها: أبي، لا تشرب، فأنا أريد مكانًا لي في العالم الجديد. وفي المانيا النازية كان السكارى يمشون في الميدان وهم يحملون بيان، يقول: لقد بددت أموالي على الخمر، ولم أترك شيئًا للأسرة. كانوا يرسلون السكاري الذين استعصوا على العلاج إلى معسكرات الاعتقال لكي يعملوا هناك من أجل سعادة الجميع. وعُلّقت على مداخل معسكرات الاعتقال في ألمانيا لوحة تقول: العمل يحرر الإنسان. وفي معسكرات الاعتقال في الاتحاد السوفيتي كُتِب على لوحة فوق بوابة الدخول عبارة تقول:

بالعمل الجاد من أجل تنفيذ الخطط. وكان الشيوعيون يُحيّون بعضهم بعبارة: المجد للعمل بدلًا من صباح الخير، لأنهم كانوا على قناعة بأن العمل مهمًا، وأنهم عندما يعملون جميعًا، ستنتصر الشيوعية في كل أنحاء العالم. وكل من كان لا يُحَيي غيره بعبارة: المجد للعمل! ويقول بدلًا منها صباح الخير! أو مرحبًا! أو نهارك سعيد! كان محل شك، وكان الناس يصفونهم بأهم يفتقدون للوطنية.

عندما انتصر النازيون في الحرب في عام 1933 أصدروا قوانين تمنع اليهود من بعض الأعمال. فلم يكن في استطاعة اليهود تقلد الوظائف العامة، ولا الخدمة في الجيش، ولا في القضاء، ولا في الإعلام. وكانوا ممنوعين من الذهاب إلى حمامات السباحة، والى دور السينما. وكان مسموح لهم فقط الجلوس في المنتزهات على مقاعد مخصصة لهم، كان مطلية باللون الأصفر، حتى يمكن التعرف عليهم بسهولة. وكان أطفال اليهود ممنوعين من الذهاب إلى المدرسة أو ركوب الألعاب في ملاعب الأطفال، وكان النازيون يأملون في أن يفهم اليهود أنهم غير مرحب بهم في ألمانيا، وعليهم أن يذهبوا إلى مكان آخر. كان النازيون أيضًا ينظمون معارض للفن الهابط ENTRATETE KUNST، ويعرضون فيها أعمالًا شاذة ومنحطة لرسامين ونحاتين يهود، أو لأشخاص موالين لهم، وذلك كي يُنبهون الشعب الألماني إلى المخاطر التي يحملها لهم الفن الذي يعبر عن الأشياء بطريقة مَرَضية. كان النازيون يهتمون بالفن، ويؤكدون أن الفن الشاذ هو أولى الخطوات نحو مجتمع شاذ بكل ما فيه، لذلك وجب عليهم أن يُحذروا الشعب الألماني منه. وكانوا ينظمون المواكب واستعراضات الألعاب البدنية، والتي تحمل رموزًا ولوحات بها صور لأجزاء من جسم الإنسان، ويقولون إن الشعب الألماني لا يمكنه العيش بدون الفن، لأن الفن ملتصق بشدة بالشعب الألماني، وهو جزء لا يتجزأ منه. ودعوا العاملين الألمان لحضور عروض الأوبرا، ونظموا المواكب، الخ. وكانوا يقولون إنه لا يجب تكديس الفن الألماني في المتاحف والمعارض وصالونات الطبقة البرجوازية، لأن الفن للجميع. وفي عام 1935 سنوا قانونًا يمنع زواج اليهود من غير اليهود، كي يحافظوا على الدم الآري وعلى الفن الألماني من التأثير الخبيث لليهودية. وكان اليهود يُجبّرون على وضع نجمة داوود الصفراء على طية صدر السترة، وعلى ظهورهم، وكانوا ممنوعين من ركوب الحافلات، وعربات الترام، ومن غسيل ملابسهم في مغاسل الآريين. وفي عام 1938 وفي إحدى ليالي شهر نوفمبر قام أفراد الشرطة السرية الألمانية بنهب المتاجر اليهودية، وحرق معابدهم. وعذبوا وقتلوا كل يهودي قابلوه في الشارع ليبثوا الرعب في قلبوهم، وليدفعونهم إلى مغادرة ألمانيا بأقصى سرعة. وقال وزير الدعاية إن هذا هو ثأر الشعب الألماني لمقتل الملحق العسكري الألماني في باريس على يد أحد اليهود البولنديين. وسُميت تلك الليلة فيما بعد بليلة الكريستال، لأنه تم تحطيم 7200 نافذة عرض للمتاجر اليهودية، وتناثرت كسرات الزجاج بكثرة في الشوارع. وفرضت الحكومة الألمانية على اليهود غرامة جماعية قيمتها مليار مارك ألماني بسبب الغضب المبرر الذي تسببوا فيه للشعب الألماني. وطالبت الحكومة السويسرية الألمان أن يضعوا في جوازات لسفر اليهودية ختمًا به حرف الياء بالبنط العريض لكي تتعرف شرطة الحدود على الرجل اليهودي الذي لا تبدو عليه ملامح يهودية. وفي البلاد التي تواجدت فيها أقليات ألمانية مثل بولندا وتشيكوسلوفاكيا بعد الحرب تم تنظيم عمليات إجلاء جماعية للألمان. وكان الألمان في مدينة برنو يُجبَرون على وضع شريط أبيض على ذراعهم يحمل حرف الياء بالبنط

العريض، وكانوا ممنوعين من ركوب عربات الترام والحافلات. وخشيت الحكومة السويسرية من أن يستقر جميع اليهود الألمان في سويسرا، فيفسدوا التناغم العرقي والتوافق القومي هناك. وكان اليهود الذين سجلوا أنفسهم هناك قبل الحرب على أنهم ألمان يعتبرون يهودًا، وكذلك اليهود الذين يحملون اسمًا تشيكيًا ولا يجيدون اللغة التشيكية. وكان حرف J يعني JUDE، أي يهودي، وكان التناغم العرقي والتوافق القومي من دعائم الاتحاد السويسري.

وبدأ الشباب يكتسب أهمية بعد الحرب العالمية الثانية في الدول الديمقراطية، لأن المجتمع الاستهلاكي قد بدأ وقتها. وعندما كان الشاب يشاهد إعلانات عن سلع تخُصه يطلب من والديه أن يشتروها له. ظهرت في المجتمع الاستهلاكي أجيال جديدة من الأطفال، تربت على الرخاء المادي، وكان لكل منهم قبعة وحذاء وأقلام تلوين، مكعبات، وكانوا يسخرون من آباءهم وهو يحكون لهم أنهم كانوا يذهبون إلى المدرسة حفاة، أو يتناوبون القبعات مع أخوتهم. وعندما كبُر الأطفال كانوا يقولون إن المجتمع الاستهلاكي يستعبد الإنسان، وأنه من الضروري التفكير في عالم جديد، لا يكون فيه الإنسان مستعبدًا. وثار الشباب في الستينات على المجتمع الاستهلاكي، وعلى الاستعباد، وعلى الحرب، والعنصرية، الخ.

بدأ تذمر الشباب في الولايات المتحدة الأمريكية، لأن الأمريكان وقتها خاضوا حربًا في فيتنام، وكان الأمريكيون متقدمين في ثقافة المجتمع الاستهلاكي. كان عندهم حوض للاستحمام، وهاتف، وكانوا لا يحبون الزنوج. لكن الشباب منهم كان يقول إن الزنوج يُثرون التعدد السكاني. كانت حرب فيتنام أول حرب تلفزيونية في التاريخ، كما كانت الحرب العالمية الثانية هى أول حرب إذاعية في التاريخ، وكان الزنوج ممنوعين من تقلد الوظائف العليا في الجيش الأمريكي، ولا يجلسون في الحافلات في أماكن غير مخصصة لهم، ولا يستعملون حمامات يدخلها المواطنون البِيض. وفي بعض الحمامات كانت توجد لافتات تقول: مخصص للمواطنين البيض، وكان الزنوج مجبرون على البحث عن حمام آخر. وفي بعض الأماكن كانت الحمامات مقسمة إلى غرفتين، على إحداها لافته مكتوب عليها: للبِيض، وعلى الأخرى: للملونين، لأن كلمة زنوج كانت تؤذي مشاعر الزنوج. وكانت المدارس العامة نوعين، مدارس مخصصة للبيض، وأخرى للزنوج. كذلك الحال في ملاعب الأطفال، والمقاعد، والمتنزهات، وصناديق الهواتف في بعض المدن. كان مؤيدو نموذج استيعاب المهاجرين يقولون إن هذا نوع من التميز الذي يُعد نتيجة طبيعية لسياسة التكامل. أما مؤيدو نموذج التكامل فكانوا يقولون إن الأمر لا يتعلق بالتميز، بل بالتفريق، وأن الزنوج يشعرون براحة أكبر وهم مع بعضهم البعض، أن مجتمع الرجل الأبيض لا يعنيهم في شيء.

عندما توقف الناس عن الإيمان بوجود الله، بدءوا يبحثون عن طريقة يعبروا بها عبثية العالم، ففكروا في مذهب المستقبلية، والتعبيرية، والدادية، والسريالية، والوجودية، ومسرح العبث. أراد الداديون أن يقضوا على الفن، ويصنعوا فنًا من الأشياء التي لم تكن موضوعًا للفن من قبل؛ من الأسلاك، وأعواد الثقاب، والشعارات، وعناوين الصحف، ودليل التليفون، الخ. وكانوا يقولون إنها أشياء جديدة، وفن تجريدي. وكتب دعاة مذهب المستقبلية أشعارًا بها العديد من هتافات التعجب، مثل كارازوك، زوك زوك زوك، دوم دوم دوم، ثم انتشرت الطباعة التعبيرية، فكتب أنصار المذهب التعبيري والدادي أشعارًا جديدة، بلغات غير معروفة، حتى يثبتوا أن كل اللغات

متساوية، سواء كانت مفهومة أو غير مفهومة، مثل بامبلا يا فيالي بامبلا. ونشر السرياليون الكتابة التلقائية، وصيغ المجاز المبتذلة، فكتبوا مثلًا: حوض اغتسالي الفليني، مثل خرطون عينيكِ. وبرروا بأن مغزى هذا الشعر يتدفق منه من تلقاء نفسه، وأنه شعر فيزيقي وميتافيزيقي في آن واحد. وقال الوجوديون إن الميتافيزيقا في طريقها للزوال، وأن كل شيء شخصي، ورغم ذلك، فالموضوعية مازالت موجودة، لكننا اخترنا الطريق الخطأ للوصول إليها، لأن الأهم هو المنحى الغير موضوعي. والأهم هو أن يكون كل شيء طبيعيًا، وأن مجرى التاريخ ينبع من قضية فلسفية، ألا وهى: هل على الإنسان أن يتواصل بصورة طبيعية؟ وإن كان الأمر كذلك، فيمكن أن يكون التاريخ أكثر وضوحًا عن ذي قبل لو تم استرجاع الحالة الروحانية. كان علماء اللغة يقولون إن التواصل يكمن في أسلوب التفكيك، وأن التفكيك يمكن أن يتم بطرق مختلفة. وكان العجائز يقولون إن التواصل صار اليوم أمرًا سيئًا بين للبشر، لأن الواحد منهم لم يعد يعرف كيف ينظر في عيني الآخر، ويشيح بنظره بعيدًا عندما يقع نظره على شخص آخر، وأن الناس اليوم لا ينظرون إلا في أعين الرجل الضرير.

مات في الحرب العالمية الأولى تسعة ونصف مليون رجلًا، وستمائة ألف امرأة. ستة ملايين رجلًا ومائتي الف امرأة قتلوا، وسبعة ملايين امرأة فقدوا أزواجهن في الحرب، وتسعة ملايين طفلًا فقدوا أبيهم في الحرب. وصارت الدول مَدِينة، وطبعت الحكومات عملات لا تصلح لشراء أي شيء، وارتفعت نسبة التضخم. ففي ألمانيا وصلت نسبة التضخم عام 1923 إلى اثنين وثلاثة من عشرة مليون في المائة. وأصبح متوسط سعر البيضة الواحدة 810 بليون مارك، وعندما أراد احدهم شراء رغيف خبز، كان يحمل النقود على جرار زراعي. وأراد العديد من الناس تغيير العالم القديم من أساسه، والالتحاق بالحزب الشيوعي والفاشي. وراح آخرون يجترون ذكرياتهم عن أوربا قبل الحرب، ويتذكرون أوقات أطلقوا عليها العصر الذهبي LA BELLE ÉPROQUE. كان العصر الذهبي هو الفترة التي امتلكت فيها الدول المتقدمة صناعيًا فائضًا في كل شيء. كانت الفاكهة الاستوائية، والشيكولاتة، والعسل التركي يباع في المستعمرات. كان الناس على ثقة من أن القرن الجديد سوف يقضي على الفقر والعناء، وأنهم سيعيشون في رخاء، وبصحة جيدة، وأن التعليم الالزامي سيجعل الإنسان أفضل حالًا وأكثر إنسانية. كان الناس في العصر الذهبي يعاملون بعضهم بمزيد من الاحترام، وكان المجرمون أكثر رأفة. فلم يطلقوا النار على الشرطة. وكان الشباب يحترم بعضهم البعض، وكانوا متسامحين فيما بينهم، فلم يمارسوا جنسًا قبل الزواج، وعندما كان أحد الشباب يغتصب فتاة ما في الحقل وهى عائدة من العمل، وكانت تحمل منه، كانت تضع مولوها في ملجأ الأيتام، فتقوم الدولة على رعايته من أموالها، وعندما كان احد السائقين يدهس دجاجة ما، كان يغادر حافلته، ويدفع ثمن الدجاجة. كان الرجال يرفعون قبعاتهم، ولا ينظرون إلى النساء إلا لكي يلقوا عليهن التحية. وكان الرجال في انجلترا ينتظرون حتى تعطيهم المرأة إشارة قبل أن يلقوا عليها التحية. وفي فرنسا كان الرجال يقبلون قفازات أيادي النساء، وكانت النساء تفلتن مناديلهن، فيقوم الرجال برفعها من على الأرض، ويعيدونها إليهن بانحناءة احترام. كانت النساء لا تدخنن لأنه كان أمرًا مستهجنًا. كان الرجال يدخنون سيجار فرجينيا، والغليون، ويستنشقون رائحة التبغ، ويسوون شواربهم. وكان الناس في أيام الأحد يذهبون لأداء الصلوات، وكان أهل المدينة يسافرون بالقطارت إلى المصايف، والسيدات يرتدين القباعات المزينة بوشاح، والرجال

يرتدون السروايل الفضفاضة المزينة بمربعات، وكانوا يلعبون في الماء بالبالونات وهم يبتسمون. وقال السرياليون وأطباء التحليل النفسي فيما بعد إن هذه البالونات كانت في الواقع رمزًا جنسيًا. وبعد الحرب تزايدت أعداد الأطفال الذين وُلِدوا بدون زواج، وتزايدت أعداد الأيتام والمجانين، لكن تناقض عدد متعاطي النشوق لأنه لم يكن صحيًا.

كان شهود يشوه يؤمنون بأن المسيح سيعود إلى الأرض في نهاية القرن العشرين، لكنه سيكون متخفيًا، ولن يراه إلا المُختارين والقديسيين. وقدروا أنه مع بداية القرن في عام 1914 ستنتهي حقبة الملحدين، وتبدأ ألفية جديدة، سيسعى فيها المؤمنون إلى الخلاص، ثم يظهر المسيح للجميع. وعندما اندلعت الحرب العالمية الولى في عام 1914 قالوا إنها النبوءة، وأن حربًا كبيرة نشبت في السماء، وأن الشيطان طُرِد من السماء إلى الأرض، وأنه سيزيد من كوارث القرن العشرين، وأنه سيكون الاختبار الأخير الذي ابتلانا به الله، والفرصة الأخيرة لمن أرادوا الخلاص. اندلعت الحرب العالمية الأولى بعد عملية اغتيال الاشيدوق النمساوي في سرايفو، والتي قام به متآمرون من منظمة اليد السوداء السرية. قرأ المتآمرون في الصحف عن خط سير الأرشيدوق إلى دار البلدية، حيث يتأهب عمدة المدينة لإلقاء خطبته، وأعد له المقبلات. فتفرقوا على جانبي طريق النهر وهم يحملون في جيوبهم القنابل اليدوية والبنادق، وينتظرون مرور الأرشيدوق. أعلنت النمسا الحرب على صربيا، وأعلن الألمان الحرب على روسيا، وفرنسا، وبلجيكا، الخ. وكانت نهاية العالم منتظرة عام 1925، ولكن عندما حان الوقت ولم تحدث قال شهود يشوه إن هذا لا يهم، الأهم هو من سيصعد إلى السماء. وقدروا أن عدد المختارين سيكون 144 ألف شخصًا، وأنهم سيبقون في السماء ليديروا شئون الأرض. وأن من سيتبعهم سيعيش على الأرض في نعيم دائم إلى أن يبدأ العالم الجديد. كان العالم الجديد مقدرًا له أن يبدأ بعد نهاية العالم القديد. وقالوا إنها تقترب، لكنهم لم يعطوا تاريخًا محددًا لبدايته. وقبضت الشرطة النمساوية التي عُرِفت بأنها أفضل شرطة في العالم على خمسة متآمرين رئيسيين، وسلمتهم إلى النيابة.

فحكمت عليهم النيابة بالسجن المؤبد. وقضى المتآمرون العقوبة في سجن بمدينة تيرازين بالأراضي التشيكية، ومات ثلاثة منهم أثناء الحرب. وصار الاثنان الآخران بطلين قوميين بعد انتهاء الحرب. أصبح أحدهم أستاذًا للفلسفة في جامعة بلجراد، واقترح على الحكومة اليوغوسلافية في عام 1937 طرد ألبان كوسوفو من البلاد، لأنهم عرق لا يليق أن يعيش في الاتحاد الفيدرالي اليوغوسلافي. وعندما مات في عام 1990 أغلق الصرب المدارس الألبانية في كوسوفو، ومنعوا الصحف الألبانية من الصدور، وحلّوا الجمعيات السياسية الألبانية، وأسسوا ميليشيات شعبية بهدف إجبار الألبان على مغادرة يوغوسلافيا. كانت الأعمال الارهابية هى أضمن وسيلة لإقناع الألبان؛ فقاموا بحرق بيوتهم، ونهب متاجرهم، الخ. وقررت الحكومات الغربية بأن ما يحدث هو تطهير عرقي، فشنت غارات جوية على صربيا حتى تجبير الحكومة الصربية على الجلوس إلى طاولة المفاوضات. استمرت الغارات الجوية على صربيا ثمانية وسبعين يومًا، وكان هذا أول نزاع دولي في أوربا منذ عام 1945، وكانت أول حرب لا يسقط فيها جندي واحد من الطرف المنتصر، وقال الخبراء العسكريون إن هذا دليل على ما سوف يحدث في المستقبل، ففي المستقبل لن يموت في الحروب سوى الأعداء.

وقال الأطباء النفسيون إن الحرب العالمية الأولى تسببت في مشاكل للعديد من البشر، وكانت هذه المشاكل مختبئة في اللاوعي، وقالوا إن الناس في العشرينات والثلاثينات بدءوا يعانون من الاضطراب العصبي، لأنهم لم يكونوا غير قادرين على التأقلم مع الحالة العامة والحالة الداخلية، وبلغ عدد من يعانون من اضطراب نفسي في أوربا في الستينات 25% من النساء، و15% من الرجال. وقال الصحفيون بأنه مرض القرن. وبدأ يتزايد عدد من يعاني من الإحباط في السبعينات، ومع نهاية القرن أصيب بالإحباط واحد من كل خمسة أفراد في أوربا. وقال علماء الاجتماع بأن الاضطراب العصبي والاكتئاب يعكسان التغيرات الثقافية في المجتمع الغربي في القرن العشرين. وأن الاضطراب العصبي هو حالة المجتمع الذي يحكمه الانضباط، والطبقية، والمحظورات الاجتماعية، وأنه تعبير باثولوجي على الشعور بالذنب. وأن الاكتئاب هو تعبير باثولوجي عن الشعور بالعجز والفراغ. كان الناس في البداية يعانون من الاضطراب العصبي، لأنهم كانوا يتطلعون إلى القيام بأمور ممنوعة، ولم يستطيعوا لأنها كانت ممنوعة. وعندما أُلغِي المنع بدءوا يشعرون بالذنب. ولاحقًا، عندما صار كل شيء تقريبًا مُباحًا، بدءوا يشعرون بالاكتئاب، لأنهم لم يعرفوا ما الذي يمكنهم القيام به، وتحولوا إلى حالات باثولوجية جديدة. وكان علماء النفس يقولون بأن الحالة الباثولوجية تغيرت تمامًا خلال هذه الفترة. وقال علماء الاجتماع إن الاكتئاب هو تعويض للعالم، حيث لم يعد لدى الانسان الحر تصور معين عن المثل العليا التي يسعى جاهدًا للوصول إليها، ولا توجد عوائق ليحاول تخطيها. كان الاضطراب العصبي عبارة عن قلق من مخالفة الأمور الممنوعة، والاكتئاب عبارة عن ضيق من وطأة الحرية. وسعى البعض إلى البحث عن قيمة لكل ما في حياتهم، وعانوا من خيبة الأمل. وقال علماء النفس إن البحث عن معنى للحياة يرتبط بضرورة مواجهة الفراغ والفناء، وأن هذا يمكن الإنسان من الحياة بكل معانيها. وأصدرت منظمة الصحة العالمية في نهاية الثمانينات إعلانًا يقول إن الاكتئاب هو أكثر الأمراض انتشارًا في العالم الغربي. وبدأت تنتشر محظورات اجتماعية جديدة قادمة من الولايات المتحدة، منها على سبيل المثال، منع التدخين، أو منع وضع ملح في الطعام، أو إلقاء النكات عن المثليين، أو الانغماس في حياة الكسل، الخ. ومن ناحية أخرى صارت الأشياء الممنوعة أقل من ذي قبل. وبالتالي صار بعض الناس يعانون من الاضطراب العصبي، والبعض الآخر من الاكتئاب، وغيرهم من الاضطراب العصبي والاكتئاب معًا، وبدءوا يستخدمون أدوية مُخدِّرة، وقال علماء التحليل النفسي بأن متعاطي الأدوية المخدرة يبالغون في تعاطيها، ولا يترددون بانتظام على جلسات التحليل النفسي، وأن الأدوية تدفع بالمشاكل إلى اللاوعي، ولا تعالج سوى ظاهر المشكلة، وتعيدهم إلى وعيهم.

كانت الناس في العصر الذهبي عنصريين دون أن يعرفوا أنهم كذلك، وكانوا فضوليين بشأن الزنوج والبابوانيين وغيرهم. كانت حدائق الحيوان في المدن البرى تنظم لقاءات سمر عرقية مع الزنوج الذي كانوا يجلسون أمام أكواخ من الخيزران، ويغطون عوراتهم بالجلد، ويقومون بحركات مختلفة. كان الناس يذهبون لمشاهدتهم، ليعرفوا كيف يعيش الزنوج البابوانيون، والأشانتي والزولو، وكانوا يلقون اليهم بالموز، وقطع السكر. كانت الاثنوجرافية تلقى نجاحًا كبيرًا، لأن الناس كانوا يودون معرفة كيف يعيش الناس في أماكن أخرى من العالم. وعرضت الدول المتقدمة في المعرض الدولي بباريس عام 1900، فضلًا عن التقنيات الحديثة، والفنون، والعمارة الحديثة،

عينات من مواطنين في مستعمراتهم، مثل النوبيين والداهوميين والكاريبيين والماليين والكاناكيين. كان الكاناكيون يجلسون على منصة أمام أكواخ من الخيزران، يلفون الجلد حول خصرهم، ويشحذون عصًا حجريًا بحجر آخر صوان، رغم أنهم لم يروا حجرًا صوانًا ولا عصًا حجريًا في حياتهم من قبل. فلم يكونوا سوى موظفين صغار في إدارة المستعمرة. جندتهم الحكومة الفرنسية للعمل العام. وبعد انتهاء المعرض الدولي أرسلهم متحف المستعمرات في جولة إلى بلجيكا وألمانيا والدنمارك. وكان الكنكانيون يكتبون خطابات إلى مدير المتحف يسألونه فيها عن موعد عودتهم إلى ديارهم والى وظائفهم، لكنهم لم يتلقوا منه ردًا على الإطلاق. ويوم ما هرب جميع الكنكانيين من العربة التي تطوف بهم في أنحاء ألمانيا، وعادوا إلى فرنسا، ثم استقلوا سِرًا إحدى السفن التي علموا بأنها ستبحر باتجاه كاليدونيا الجديدة. لكن السفينة في الواقع أبحرت إلى لبنان. وعندما عثر عليهم البحارة مختبئين أسفل السفينة، وعلموا بأنهم كنكانيون هاربون من المعرض الدولي، شعروا بالفخر لأنهم اختاروا سفينتهم. فأحضروا لهم الطعام، ولم يسمحوا لهم بالعمل. وراحوا يسألونهم عن عدد العصي الحجرية التي ينتجها الكنكانيون سنويًا. بدء الاهتمام بالقصص العرقية يتضاءل تدريجيًا بعد الحرب العالمية الأولى، فقد شارك في صفوف الحلفاء أثناء الحرب مليون وسبعمائة ألف منهم، فاعتاد الناس عليهم، وصاروا أقل فضولًا لمعرفة أخبارهم.

أفكار سخيفة أراد الشباب ممارسة الجنس التقاليد تندثر كان الشباب يقولون إن العنصرية من آثار العالم القديم، ويجب بناء العالم الجديد على نحو مختلف، وأن الحب والسعادة أكثر أهمية من التلفزيون والثلاجة.

رفضوا أن يملي عليهم آباؤهم بما سيدرسونه، أو يمنعونهم من التدخين، وممارسة الجنس، أوإطلاق شعرهم، الخ. وهبت في أوربا الغربية في عام 1968 موجة غضب، قام بها الطلبة، حيث أقاموا المتاريس، وترددوا على المصانع لإقناع العمال بضرورة تغيير المجتمع بالكامل، وكتبوا على الحائط عبارات تقول: الصفاء سيظل باهتًا حتى نصقله! كونوا واقعيين واطلبوا المستحيل! ولا للمحاذير! والحكومة ينقصها الخيال! وقاموا باحتلال حجرات الدراسة والمسارح، وراحوا يدخنون ويمارسون الجنس بمختلف الأوضاع، ويتحدثون في السياسية. كانت الستينات لحظة فاصلة في تاريخ المجتمع الغربي، حيث سيطرت الرفاهية المادية، وتمكنت النساء من الحصول على موانع الحمل، وصار الشباب جزءًا هامًا من الرأي العام، وبمرور الوقت بدأ كبار السن في ممارسة الرياضة، وارتداء الملابس الشبابية، وبدءوا يمارسون الجنس في أوضاع مختلفة، ويعلنون عن أفكار سخيفة لا تليق. وصار كل من لا يتمتع في نفسه على الأقل بروح بالشباب جزءًا من العالم القديم. وكان علماء الاجتماع يقولون إن المجتمع الطبقي قد انتهى، وحل مكانه شكل جديد من مجتمع، أطلقوا عليه المجتمع الشاب. قالوا بأن هذا يعد دليلًا على تحول راديكالي في المجتمع الغربي، وأنه يجب أخذ هذا في الاعتبار. وقال بعض الفلاسفة بأن تبجيل الشباب يُعدّ واحدة من أكبر الحماقات في تاريخ النفس البشرية، وأنه من الواضح أن الفاشية والشيوعية قد ارتبطتا به، وأن المجتمعات الديموقراطية كانت على درجة من الغباء، جعلتها تأخذ عن الفاشية والشيوعية ما يسمي بتبجيل الشباب. وقال آخرون إن الأمور تسير في طريقها الصحيح، وأن

الشباب رغم حماقتهم ناشطون، وهذا أمر إيجابي. وقال علماء الاجتماع إن الايجابية تعد قيمة جديدة في الحضارة الغربية، حلت محل القيم الانسانية التقليدية التي لا تتناسب مع حالة المجتمع. الايجابية تعني أن الناس سوف تنظر بثقة نحو المستقبل؛ ستمارس الرياضة، وتحيا حياة صحية ومتناغمة، ستتردد على الطبيب بانتظام، وتعيش عمرًا مديدًا، وستعمل بكل جدّ حتى تستمتع بوقتها في سن التقاعد، وتردي ملابس الشباب. لم يرغب أحد في أن يكون فقيرًا، رغب الجميع في امتلاك ثلاجة وهاتف محمول، وكلب، وقطة، وسلحفاة، ومنشط جنسي.

أراد الجميع ممارسة الرياضة، والتردد على جلسات التحليل النفسي. وقال الفلاسفة الكاثوليك أن الطائفة البروتستانتية هى المسئولة عن كل هذا، لأنها تنشغل كثيرًا بالنجاح المادي، وتنادي بمبدأ: ساعد نفسك، يساعدك الله! في حين أن الكاثوليك يؤمنون بمبدأ: من أحبه الله أوسع له في الرزق. وقال الفلاسفة البروتستانت، خلاف ذلك إن سقوط الكنيسة الكاثوليكية يبرهن على أنهم غير قادرين على مسايرة روح العصر، وأن أفكار البشر تتطور، وأنهم أكثر حداثة، حيت يستطيع القساوسة الزواج، وإشباع حاجاتهم الجنسية، وبذلك ينشرون الأفكار المسيحية في مجتمع سيطرت عليه مظاهر الإلحاد. وقام سكان المدينة باستقدام الكلاب والقطط إلى مساكنهم، وكذلك السلاحف وصغار الخنازير، فالحيوانات لا تتكلم ولا تشي بشيء. وكان للكلاب والقطط محلات حلاقة خاصة بهم، وصالونات تجميل، وقاعات لممارسة الرياضة، ومراكز رعاية صحية، ومشرحة، ومقابر، الخ. قام الجنود الأمريكيون العائدون من حرب فيتنام بجمع الأموال لبناء نصب تذكاري لأربعة آلاف ومائة كلب أمريكي، لقوا حتفهم في فيتنام دفاعًا عن الحرية والديموقراطية. وأقيمت في الدول المتقدمة مزارع، أُطلِق عليها متاحف القرية، أو زوايا القرية. كان سكان المدينة يسافرونا إليها ليشاهدوا أشكال الخيل، والغنم، أو البقر والطيور، لأن تربية الحيوانات المستأنسة اختفت من المدينة.

وتقلصت أنواع أخرى من الحيوانات، مثل الغرير، والبومة، وضفادع الشجر، والفراشات، والخنفساء. وقال علماء البيئة إن السبب يعود إلى تلوث البيئة، واستخدام المبيدات، وعوادم السيارات، الخ. وهاجم بعض علماء البيئة مراكز الأبحاث الطبية والدوائية ليلًا، حيث تجرى فيها التجارب على الحيوانات، وأطلقوا سراح القرود، والأرانب، والجرذان، والكلاب، والثعابين، والضفادع. وتزايد عدد الذين آمنوا بضرورة حماية الحيوانات، فأسسوا جمعيات لحماية الحيوانات، وأحيانًا ارتدوا ملابس على شكل دب أو صقر، وتظاهروا في شوارع المدن ضد صائدي الحيوانات ومصارعي الثيران، وضد التجارب العلمية التي تُجرى على الحيوانات. كانوا يقولون إن قتل الحيوانات عمل غير إنساني. كان بعضهم من النباتيين، لا يأكلون سوى الجزر، وما شابه. كان صائدو الحيوانات يقولون إنهم يصطادونها حتى يحافظوا على التقاليد، وأن التقاليد تندثر، ويجب الحفاظ عليها من الاندثار لأهميتها في العالم الحديث. وكان يحدث من وقت لآخر أن يقتل أحد الصيادين زميله بدلًا من أن يقتل خنزيرًا بريًا، على سبيل الخطأ. وقام صيادون آخرون بجمع أموال لشراء غسالة جديدة لأرملة أو شيئًا من هذا القبيل، شيئًا قد يكون ضروريًا ويحتاجه المنزل.

كانت الماعز والدواجن تربي في البيوت في العصر الذهبي، وكان الرجال يدخنون السيجار ويسوون شواربهم، وكانت الشوارع تعج بعربات الترام الكهربائية، وعربات الحنطور، والدراجات، والحافلات التي تجرها الخيول. كانت الخيول تستخدم في المدينة بشكل أساسي لنقل البضائع، حيث لم تكن عربات النقل قد ظهرت بعد. وكانت تستخدم أيضًا في الجيش وقوات الدرك. لقيت العديد من الخيول حتفها أثناء الحرب العالمية الأولى، وخاصة في الجبهة الشرقية، حيث التقى سلاح الفرسان الروسي والألماني والمجري. وفي عام 1916 اندست الجواسيس الألمانية وسط خيول الجيش الروماني، ووضعوا جرثومة الرعاب وسط علف الخيول، فلقي ثلاثة آلاف وخمس وخمسين حصانًا حتفهم. وكانت الخيول على الجبهة الغربية تستخدم بشكل أساسي في دوريات الحراسة، وفي نقل المدافع، والأسلحة، والمأكولات، وفي نقل ألواح الخشب التي كانت تستخدم في بناء الخنادق. وكانت كتائب المشاة في حالة تأهب. فقد كان الجنرالات يعتقدون أن المشاة سوف يقهرون خطوط الأعداء، وسوف يبطلون منصات الأسلحة. أما سلاح الفرسان فكان هو من يحدد مصير الحرب، من خلال حصار صارم للعدو. وفي عام 1915 اخترع الفرنسيون أقنعة خاصة ضد الغازات مخصصة للخيول. تقلص عدد الخيول بعد الحرب في المدن وفي الجيوش. وتم إلغاء معظم حظائر الخيول في المدن، وتحويلها إلى دور حضانة. وخفضت غالبية الجيوش أعداد الخيل بعد الحرب العالمية الثانية، باستثناء الجيش الأحمر الذي وضع ثمانمائة ألف حصان في حالة تأهب، وانتظر حتى يستهلك الأمان ما لديهم من مخزون البنزين أو يغوصوا في المستنقعات. كانت جميع اسطبلات الخيل قد ألغيت تقريبًا في ألمانيا وفي دول أوربا الغربية الأخرى في ذلك الوقت، واستخدمت في أغراض أخرى. وفي معسكر الاعتقال بمدينة بيركيناو استُخدمت زرائب الخيل كوحدات للإيواء. كان الاسطبل يتسع لاثنين وخمسين حصانًا، أو ما يتراوح بين ألف وألف ومائتين سجينًا.

حظي الدفاع عن التقاليد والعودة إلى الطبيعة بأهمية كبيرة في القرن العشرين. لأنها كانت أمور قادرة على مواجهة الأزمات الأخلاقية التي صاحبت ظهور القاطرات، والبواخر، والمصانع. وأصبح الناس غير قادرين على الحياة في تناغم، وانتشر العنف في كل مكان في العالم، وازداد الفقر والظلم. اجتمعت في عام 1906 مجموعة من الفوضويين الألمان والنمساويين. كان هدفهم العثور على عالم حقيقي تحت عباءة الحضارة. وانتقلوا إلى سويسرا، وأسسوا هناك جمعية أطلقوا عليها اسم مونت فيريتا. وأسسوا هناك المذهب الطبيعي، والنظام النباتي، والتناغم الطبيعي، فأطلقوا شعر رؤوسهم، ونظموا حفلات راقصة حول نيران المعسكرات، وأعلنوا عن افكارهم.

وبمرور الوقت ظهرت حركة التف حولها الشباب من مختلف الدول. أعلنت عن نوع جديد من الفنون المجردة المتناغمة مع الطبيعة. وكانوا يقولون إن الفن ليس قضية جمالية، لكنها قضية بيولوجية، وأن الرقص هو أكثر الفنون تلقائية، لأنه بديهي. فالرقص يمكنه أن يؤسس لظهور نظام اجتماعي جديد. وانضم العديد منهم في ثلاثينات القرن العشرين إلى النازية، لأن النازيون دعوا إلى التناغم الطبيعي، واندماج الفرد مع الوطن والعرق، وانتفضوا ضد اليهود الذين اعتبروهم ضد نظام الطبيعة، ويسعون إلى تلويث العقل البشري، وينتزعون منه ما قد يمكن الانسان من الحياة المتناغمة. وصار أحد أعضاء المجموعة مصمم رقصات في ألمانيا النازية،

وابتدع الرقص الرمزي، وخصصه للعمال الألمان حتى تزيد قدرتهم على الانتاج في مصانع الأسلحة. وكتب أحد الجنود الايطاليين في عام 1917 في خطاب إلى شقيقته يقول: أصبحت أكثر إيجابية يومًا بعد الآخر. وأعلن أحد الأطباء الفرنسيين في عام 1930 عن بداية عصر جديد لبرج الدلو، سيولد فيه انسان جديد، ويصير العالم خالي من الحروب والعنف. وفي عام 1921 أسس أحد المدرسين الاسكتلنديين مدرسة تجريبية في ألمانيا، أراد ان يختبر فيها طرق ثورية جديدة مناهضة للفاشية. وقال إنه يجب استبدال التعليم بالمناظرات حول أمور أكثر أهمية، لأن التعليم التقليدي هو في الأساس غير ديمقراطي، ويدعم السلوك العدواني لدي الطلبة. وكانت المدرسة مخصصة للطلبة من سن الخامسة وحتى السادسة عشر. وعندما لم يكن أحدهم يرغب في إجراء المناظرة، كان يجلس في منزله، أو يركب دراجة، أو يبني خندقًا مع أصدقاءه. وكانت هذه طريقة ثورية. وبمرور الوقت اقتنع الناس بأن العالم يدخل مرحلة جديدة، أطلقوا عليها اسم العصر الجديد. كان هذا العصر الجديد من المفترض أن يبدأ بمجرد أن تدخل الشمس إلى برج الدلو. كان من المفترض أيضًا أن يستمر هذا العصر لمدة ألفين ومائة وستون عامًا. سيتصل خلالها المخيخ الأيمن بالأيسر. وسيحدث خلالها تحول في عقلية البشر يسمح بنشأة قيم روحانية جديدة. كان من المتوقع أن يكون العصر الجديد متناغمًا، وروحانيًا، وتفاعليًا. عصر لن يقهر فيه أحد، لأن البشرية ستصل حينها إلى درجة جديدة من المعرفة، وسيصير كل البشر ناضجين من الناحية الروحية والبيئية.

كان كل من آمن بالعصر الجديد يقول إن برج الدلو يشير بصورة رمزية مناسبة إلى التغيير الذي سيحدث، لأن البشر متعطش إلى شيء جديد، وأن الدلو سيروي هذا العطش. فقد كان العالم القديم ماديًا، وميكانيكيًا، وتفكيكيًا. واعتقدوا أن الطريقة التفكيكية تحطم حقيقة الأشياء، وحقيقة الأشياء يجب أن تتطور بطريقة تركيبية. عَلّمت الحضارة الغربية الناس كيف يحصون أعداد الأشجار في الغابات دون أن يروها. أراد كل من آمن بالعصر الجديد أن يعود إلى الجذور الروحانية للتضامن البشري، وأن يتحد مع الطاقة الكونية، واعتقد الناس بأنه يجب إعادة النظر في تربية النشء، لأن العصر الجديد لا يمكنه أن يظهر بصورة كاملة، طالما ظل الناس يفكرون بالطريقة القديمة. وكان الناس يقولون إن التناغم هو أهم شيء على الإطلاق، لأن التناغم يمكن المخيخ من التواصل الحر. وأن تواصل المخيخ الأيسر والأيمن سيمكن كل إنسان من بلوغ الشاطئ الأخر لنفسه.

قال البابا في عام 1950 إن نظرية التطور التي تعتقد أن أصول البشر تعود الى القردة والمحار والكوارك، الخ، لا تتعارض مع الايمان بالانسان، ولا مع الرسالة التي كلفه الله بها. وإن كانت هيئة الإنسان تعود قديمًا إلى كائن حي فإن الروح قد خلقها الله. وقد خلق الله الروح عندما اكتسب جسد الانسان هيئته الكاملة. وقال بابا آخر في عام 1996 بأن نظرية التطور هى على الأرجح صحيحة، لكنها لا تفسر الميتافيزيقا. وهذه هى مهمة الدين. وقال إن العلم يمكنه أن يجيب على التساؤلات الخاصة بنشأة الإنسان، لكن على الجانب الآخر يجيب الكتاب المقدس عن التساؤلات الخاصة بسبب نشأة الإنسان، ويساعد على فهم التناقض بين الاستمرارية الفيزيقية للكائن الحي، وبين الفجوة الوجودية الناجمة عن وجود الإنسان. وكان الناس الذين لم يؤمنوا

بوجود الله، ولا بالعصر الجديد، ولا بالكائنات الفضائية، ولا بالعناصر الروحانية، يؤمنون بأن الانسان نشأ بمحض الصدفة، وأن العالم لا منطق له، وكذلك الطبيعة، فهى شاذة، وأن البحث عن منطق يحكمها مجرد لغو، لا طائل منه. واعتقد آخرون ممن آمنوا بالله وبخلق العالم أن نظرية التطور هى محاولة شيطانية للقضاء على الإنسان، وأن البابا ما هو إلا بوق للشيطان. وفي عام 1930 كشف قس معمداني عن بصمة لقدم بشرية عمرها ثمانون مليون عامًا. أراد بذلك أن يثبت أن الانسان قديم قِدم الديناصورات.

وعلق علماء نظرية التطور على هذا الأمر بأنه فضيحة، وقال علماء نظرية الخلق بأن الفضيحة الحقيقية هي التأكيد على أن أصل الإنسان يعود إلى القردة، وأن نظرية التطور هى خداع أيديولوجي، تُنكر على الإنسان حقه الأصيل في فهم نفسه وإرادته في سعيه نحو الكمال وفي العمل، الخ. وقال علماء نظرية الخلق بأن إدراك الإنسان لنفسه، وسعيه نحو الكمال هى صفات نجدها حتي عند الحيوانات، وقال الشيوعيون إن الإنسان ما هو إلا قرد يعمل. لكن بعض علماء نظرية الخلق لم يتفقوا معهم في هذا الإدعاء، وقالوا إن الطبيعة لا تحتاج إلى العمل، فهي قائمة بنفسها. وقال آخرون من أنصار نظرية الخلق بأن العمل أمر ضروري، وأن العلوم الاجتماعية تخضع لنفس القوانين والآليات مثلها مثل علم الأحياء، والرعاية الصحية المبالغ فيها، والضمان الاجتماعي، الخ. وأن العلوم الاجتماعية تستدعي في الناس الكسل، وتحد من تطور البشرية.

كان الشيوعيون يؤكدون أن الله غير موجود، وأن المادة هى الشيء الوحيد الموجود، ومن الضروري بناء عالم جديد يسود فيه العدل بين كل من يمد يده ليعمل، وأنه لن يكون هناك حقد بين الناس، لأن كل انسان سيكون لديه كل ما يحتاجه، ولن يكون لديه ما ليس عند الآخرون. ولكن قبل أن يبدأ العالم الجديد يجب اقتلاع العالم القديم من جذوره، ويجب أن يتعلم الناس نمطًا جديدًا من التفكير، فبدون هذا الفكر الجديد لا يمكن أن يبدأ العالم الجديد. وقالوا إن على كل إنسان أن يختار راغبًا الوقوف في جانب التقدم، وإلا سيعصف به إعصار التاريخ. وأكد الشيوعيون بأن التاريخ انتهي مع ثورة أكتوبر، لأن الشيوعية هى المتمم لحركة التاريخ البشري، وسرعان ما ستنتصر الشيوعية في كل أنحاء العالم، ولن يكون هناك داع لاستمرار التاريخ. وقالوا إن الشيوعية ليست نظامًا سياسيًا، بل هى لحظة تاريخية، وأنهم أعدوا لمن لم يفهموا هذا الأمر، وظلوا على أفكارهم القديمة، لهؤلاء الخونة الأنانيين، لهؤلاء الحاقدين المنشقين ولمدمني الكحول، أعدوا مكانًا خاصًا أطلقوا عليه اسم مزبلة التاريخ. لأنه إلى أن تأتي تلك اللحظة التي ستنتصر فيها الشيوعية في كل أنحاء العالم يجب أن يعرفوا مَن هو غير مؤهل لدخول التاريخ. وقال المؤرخون فيما بعد إن الشيوعية كشفت على خطر جديد يهدد الحضارة الإنسانية، ألا وهو اختفاء ذاكرة التاريخ، فقد فرض الحكام المتسلطون رقابة على ذاكرة التاريخ في المكتبات والمتاحف، وغيرها. وعدّل الشيوعيون على نحو واسع في ذاكرة التاريخ في كل مجالات الحياة العامة وغير العامة، وجعلوا من تعديلها قاعدة فوق القواعد القانونية، وكانوا يعتبرون هذا أمرًا ضروريًا. وأنشأ الشيوعيون المحاكم الثورية في عام 1917. كانت تصدر أحكامًا على الخونة والعملاء، فخلال ظهيرة يوم واحد تمكنوا من إصدار أحكامًا بإعدام ثلاثمائة وخمسين شخصًا. وهو أمر لم يكن ممكنًا في ظل محكمة تعمل بالطريقة القديمة، كما ابتكروا أساليب تعذيب

حديثة وعصرية، مكنتهم من الحصول على اعترافات من الخونة والعملاء، وعلى عناوين خونة وعملاء آخرين. وكانت أكثر أساليب التعذيب شهرة تسمى: الأذن، والسنونو، والسباح، وتقليم الأظافر، والفيلة. وهى أساليب تتلخص في أن الشخص المتهم بالعمالة يوثق في مقعد أو طاولة، ويضعون فوق رأسه قناع غاز، لكن بدون أكسجين، ثم يوسعه الشيوعيون ضربًا بعصاة ما وهو يتنفس بصورة متقطعة، فيغشي عليه على الفور، ثم يسحب الشيوعيون القناع من على رأسه، ويعيدونه إلى وعيه، ثم يطلبوا منه أن يرشد عن غيره، وأن يبلغهم عن عناونيهم. من الأمور المستحدثة أيضًا أن الشيوعيين، بدلًا من أن يرفضوا حدثًا تاريخيًا ما، كان يتركونه في الوثائق التاريخية أحيانًا، لكن يعرضونه بطريقة مغايرة تمامًا. وعندما كان المتآمرون يرفضون الإجابة على الأسئلة، كان الشيوعيون يطلقون عليهم كلابًا مدربة تُسمى بالرقم واحد، والرقم اثنان، والرقم ثلاثة، الخ. لأنه في المجتمع الجديد كان لكل شيء رقم. وكانوا يمحون بانتظام من صور الحفلات المختلفة والأحداث التاريخية الهامة صور الشيوعيين الذين ارتكبوا أثناء عملهم خيانة للوطن أو مؤامرات ما، أو تبنوا مفهوم برجوازي للحياة، أو تفكير منحرف. ولم يتبقى في صورة كان بها مثلًا ثمانية أشخاص سوى رجلان أو ثلاثة. كانوا يولون اهتمامًا كبيرًا بالصور الخاصة باللجان. لأن الناس عندما توقفوا عن تصديق ما يُكتب لهم، ظلوا يثقون لفترة من الزمن بالصور. وكان الشيوعيون يعتقدون أنه من الضروري تطويع الصور لحركة التاريخ، مثلما طوعوا القاطرات الجديدة وغيرها لحركة التاريخ أيضًا. واخترعوا في عام 1919 طريقة علاج نفسي خاصة بالمنشقين والمجانين. وكانوا يرسلون المنشقين إلى معسكرات الاعتقال والمجانين إلى مستشفى للمجانين، حيث عرّضوهم لطريقة علاج خاصة، أطلقوا عليها غسيل المخ. كانت العقول المريضة تحتاج إلى غسيل حتى لا يبقى فيها شيء من النظام القديم، وحتى يضعوا فيها أفكارًا جديدة.

مع نهاية القرن بدأ الناس في الدول الديمقراطية يشعرون بأن الديمقراطية والمجتمع الاستهلاكي يسهمان في فقدان الذاكرة، وكانوا يقولون إن زيادة جرعة المعلومات بطريقة أو بأخرى لها نفس خطورة الرقابة التي فرضها الشيوعيون، وأصبح الناس منفصلين عن التقاليد وعن جذورهم، الخ. وبدأ المجتمع الاستهلاكي يتجه بالضرورة نحو الفناء لأنه قائم على المتعة. وقالوا إن زيادة جرعة المعلومات ستمثل خطورة على المدى البعيد أكثر تأثيرًا من رقابة الشيوعيين لأنها لا تتطلب رد فعل، ولا رغبة في المقاومة، بل تدعو إلى الارهاق والاستسلام. وكان الناس يقولون بأن النظم الديمقراطية تؤدي إلى اندثار كل المرجعيات الثقافية والتاريخية، وتقود إلى ديكتاتورية القوالب. وأشار آخرون إلى أن الذاكرة هى في الواقع تفاعل بين حفظ ومحو حدث ما، وأن الأمر يعد اختياريًا، ولو أن الذاكرة لم تكن موجودة لتعلق الأمر بشيء آخر غيرها، وقد تكون عِلّة نفسية. وقال غيرهم إن الذاكرة في الحضارة الغربية ليست قضية جوهرية، وهذا ما يميزها عن باقي الحضارات، وأهم من الذاكرة في المجتمع الغربي هى المباديء العامة، والإرادة العامة. وهذا ما يمكنها من الانتقال من التبعية إلى الاستقلالية. فالديمقراطية لا تتوقف على الذاكرة، ولا على التقاليد، أو غيرها، بل هى تكمن في العقد المبرم بين الإدارة والفرد. وهذا العقد يخلو من أية قيمة تاريخية أو أنثروبولوجيّة، لكنه يمكن من إدارة وتقنين مؤسسات المجتمع. والأمر الهام في المجتمع الغربي هى قاعدة مميزة اسمها الطليعة. هذه القاعدة تشير إلى المستقبل بطريقة جيدة

في الفن، وفي العلوم، وفي السياسة. ويقتصر دور الذاكرة في الحضارة الغربية على الأرجح على مفهوم الذاكرة في الحاسب الآلي. وقد فرق المبرمجون بين نوعين من الذاكرة، الذاكرة الديناميكيةRAM وذاكرة القراءة ROM. لكن غالبية الناس عندما يتحدثون عن ذاكرة الحاسب الآلي يقصدون بها فقط الذاكرة الديناميكية، أو الذاكرة العشوائية RAM. ومن يعتقد أن الديمقراطية والمجتمع الاستهلاكي يساعدا على تقلص الذاكرة كان يقول إن هذا بمثابة مقدمة لعالم بدون ذاكرة، عالم سيكون كل شيء فيه عشوائيًا.

ورأى الشباب أنه من الضروري العودة إلى جذور الحكمة، حيث أن المجتمع الصناعي والتعليم الالزامي قد غيرا علاقة الإنسان بالمعرفة الحقيقية. وقالوا إن ما كان يعرفه كل الأطفال من قبل لا يعرفه اليوم سوى حفنة من المتخصصين. فقديمًا عرف الأطفال أسماء الأعشاب المختلفة، وأجادوا وضع المصائد لاصطياد الأرانب، وصناعة الكرات من الحشائش الخضراء، ولف سيجارة من أوراق الفروالة، ومضمضة أفواههم بشراب نبات القرّاص حتى لا يعنفهم أحد في البيت. وقال كبار السن إن ما كان يعرفه قديمًا حفنة من المتخصصين يعرفه اليوم كل طفل، كالتربيع على سبيل المثال. غير أن كبار السن كانوا يعتقدون بأنه لا جدوى من التربيع، فكانوا يسافرون إلى الهند وإلى نبيال لمعرفة حكمة الشرق، وكانوا يقولون إن علم الأخلاق المسيحي يستعبد الإنسان، وأن سكان أوربا لا يعرفوا سوى حساب عدد الأشجار، في حين أن سكان الهند يرون الغابة. ورفضوا العيش في عالم مليء بالعنف والفقر، والهواء الملوث، فسافروا إلى مناطق نائية في أمريكا أو اسكتلندا أو في فرنسا، وأسسوا هناك جماعات، وكانوا يدخنون الحشيش والماريجوانا، ويمارسون الجنس، ويغنون الأغاني، ويعلمون أولادهم الحياة في تناغم مع الطبيعة، ويدافعون عن التقاليد، ويقرعون الدفوف، ويتراقصون حول نيران المعسكر، ويعلنون عن أفكارهم. كان كل هذا غير مسموح به في الدول الشيوعية، وكان الجميع مجبرون على تعلم نفس الأشياء، ولم يكن مسموح للناس بالسفر كما يحلو لهم. وكان المقصود بالإنسان التقدمي هو أن الجميع يعمل لصالح الشعب العامل، وأهم ما فيه كانت طبقة العمال، لأن الشعب العامل يتمتع بسلطة طبيعية في المجتمع، لذلك أرد كل فرد أن يثبت انتمائه إلى الطبقة العاملة. وكان يُقصد بكلمة تقدمي في الدول الديموقراطية الرغبة في إسقاط أي سلطة، فكان من حق المواطن القيام بما تراءي له، ولكن بمسئولية، لأنه في هذه الحالة سيصبح الجميع أحرار في أفكارهم، وسيحافظون على الاحترام المتبادل. وألف الأدباء التقدميون في الدول الاشتراكية روايات تدور أحداثها في بيئة الطبقة العاملة كي يؤكدوا أن الانتماء إلى الطبقة العاملة شرف لكل إنسان يتمتع بأفق متسع. وكتبوا أيضًا عن أناس كانوا ينظرون بازدراء إلى الطبقة العاملة، ثم اتضح لهم لاحقًا أن السعادة تحلق فوق رؤس عمال هذه الطبقة، فأرادوا أن يكونوا عمالًا مثلهم، أو يصبحوا على الأقل عقولًا عاملة تساعد العمال، وتمدهم بأفكار جديدة وجريئة.

وفي الدول الديموقراطية كتب الأدباء التقدميين عن أناس ذوي عقول متفتحة ناهضوا الهيمنة والنظام الثابت، وأردوا أن يحافظوا على حريتهم، حتى لو أدي هذا إلى صدام مع المجتمع. ونشأت جمعيات مصطنعة، سعى فيها شباب الأدباء إلى تجربة أنماط جديدة للكتابة، وطرق تجريبية كي يثبتوا أن العالم عبثي.

في نهاية القرن زاد عدد المدخنين من الرجال عن النساء بمقدار الثلث، وزاد عدد قائدي السيارات. وكانت نسبة امتلاك السيارات للفرد الواحد أعلى عند الأمريكان والألمان. في حين كان اليونانيين أكثر الشعوب تدخينًا. كانت أعمار النساء أطول من أعمار الرجال، وقلت بينهم حالات الانتحار، وكان عدد الكلمات التي تنطقها المرأة في اليوم الواحد ثلاثة أضعاف ما ينطقه الرجل. وركب أهل المدن الدراجات، ومارسوا الرياضة. فمارسوا رياضة الجري في الشوارع في أوقات الصباح حتى ينعشون صدورهم. أبتكر الأمريكيون رياضة الجري في الصباح، وكانوا يرتدون زيًا لامعًا وحذاءًا بنعل معلق جيد التهوية، يحافظ على العامود الفقري. وفي عام 1985 اصيب مائة وثلاثون أمريكيًا بنوبة قلبية جراء الجري. وأراد الناس في نهاية القرن أن يظلوا شبابًا يتمتعون بالنشاط، وباعتدال في مواقفهم السياسية وميولهم الجنسي. وهذا يعني التوقف عن إغواء النساء ومبادلتهم الابتسامة الساحرة، وغيره، وكذلك القاء نكات عن اليهود والألمان وعن المثليين. وكانت بعض النساء تتقدمن بشكاوي ضد رؤسائهن الذين يخاطبوهن بكلمات بها إيحاءات جنسية، أو يعرضوا عليهن توصليهن إلى المنزل، وعلى وجوههم إيحاءات خليعة.

وفي عام 1997 اضطر أحد المحامين الأمريكان إلى دفع أربعة ملايين دولارًا أمريكيًا كتعويض لسكرتيرته، لأنه سكب عصير الشيكولاتة في فتحة صدرها. وأراد بعض الأمريكيين في عام 1998 تنحية رئيسهم لأنه أقام علاقات غير سوية مع إحدى المتدربات، ومد يده على ثدييها، ودس في فتحة مهبلها سيجار كوبي، وقامت هى الأخرى بلعق عضوه الذكري وهو يتحدث هاتفيًا مع ممثل الحكومة، الخ. كان الأمريكان في ذلك الوقت يقصفون العراق بالقنابل. فقال العراقيون إن الأمريكيين يريدون بهذا القصف لفت الأنظار عن السلوك الجنسي المنحرف لرئيسهم. أراد الأوروبيون أيضًا أن تتسم سياساتهم بالاعتدال، مع قليل من الجنسن لأن ملاطفة النساء كان لها تقاليد ثقافية عريقة في الدول اللاتينية بصفة خاصة، في حين كانت أمريكا من المناطق المحافظة. كان متوسط أعمار المواطنين في الدول الديمقراطية أعلى من الدول الشيوعية، لأن المواطنين كان يترددون على الطبيب بانتظام، وياكلون الخضروات الطازجة، الخ. في حين أن المواطنين في الدول الشيوعية كانوا يسرفون في التدخين لأنهم لم يدركوا أهمية التمتع بصحة جيدة وحياة مديدة. وكان أقل متوسط للأعمار في الدول النامية التي كانوا يطلقون عليها دول العالم الثالث. وكان متوسط أعمار الناس في الدول المتقدمة في نهاية القرن 78 عامًا، وبلغ أقل متوسط الأعمار بين مواطني سيراليون 41 عامًا. وكان علماء الاجتماع يقولون إن مواطني كندا وفرنسا يتمتعون بمستوى معيشة مرتفع من أوجه عديدة. واحتلت الولايات المتحدة المركز الثامن عشر وسيراليون المركز رقم 187. وكان أهل المدينة أطول عمرًا من أهل الريف، وكانوا يستعملون خمسة أضعاف الكلمات التي يستخدمها سكان الريف. وكان الأطباء يقولون إن الناس يمكنهم بلوغ سن 110 أو 130 عامًا، طالما التزموا بأسلوب حياة صحيح ورعاية صحية مثالية. واعتقد بعض الناس أن الانسان سيصبح يومًا ما خالدًا من الناحية العملية، وأن المجتمع المثالي سيتحقق عندما يموت الناس فقط جراء الحوادث الطارئة أو الانتحار. وقال علماء النفس إن أراد شخص ما التمتع بعمر مديد فعليه ألا ينظر إلى الماضي، وأن يتطلع إلى المستقبل، لأن النظر إلى الماضي غير مجدي في إطالة العمر. في حين أن المستقبل مليء بالتوتر الإثارة والتحديات المجهولة، وأن الناس يمكنهم تصور حالة العالم بعد عشرين أو خمسين عامًا. وكان علماء الطب

النفسي يقولون إن الذكريات الخاصة على أية حال لا تتفق مع الواقع، ولا مع التعامل مع الحقائق الموضوعية، وأنها وسيلة دفاعية للعقل البشري. ولو أن الانسان فقد هذه الوسيلة للتواصل مع الماضي لمات قبل الأوان بكثير. وتناقص متوسط عمر الانسان أثناء الحرب العالمية الأولى في مختلف الدول بنسبة 10 إلى 12 في المئة، في حين ارتفع متوسط الأعمار بين الطبقات العاملة، حيث اختفت البطالة، وتردد العملون والعاملات على طبيب الشركة، وحصلوا على كوبونات تغذية في المطاعم حتى يستطيعوا تحقيق الفوز النهائي. وطالب العديد من الناس بتقنين الموت في المستشفيات بناء على طلب الراغبين. وعرضت بعض المعامل على المواطنين أن يضعوا جثثهم بعد الموت في ثلاجات، ويتركونها هناك إلى أن يأتي الوقت الذي يتوصلون فيه إلى جعل البشر خالدين، أو إلى أن يتمكنوا من استنساخ الإنسان، لأنهم لم يتمكنوا حتى الآن إلا من استنساخ بخاخة البحر، والمرجانيات، وبراغيت المياه، والضفادع، والماشية، والبقر، وما شابه. وكان الاستنساخ عبارة عن تقنية، مكنت من خلق صورة جينية لأي كائن حي باستعمال الخلية. وكانت هذه هى إحدى أساليب الوصول إلى الخلود.

وقالوا عن الحرب العالمية الأولى إنها آخر الحروب على الإطلاق. وكانوا يرددون هذا الكلام في بداية الحرب في كل مكان، لأن كل الأطراف اعتقدت أنها ستربحها، ولن تكون هناك حاجة إلى مزيد من الحروب، وسوف يسود السلام العالم. وبعد الحرب لم تُسمع هذه التسمية إلا في الدول التي خرجت من الحرب منتصرة.

فقد اعتقد مواطنو هذه الدول أنه لا ضرورة من اندلاع حروب أخرى. أما في الدول التي خسرت الحرب فكان رأي الناس مختلف. انتصر في الحرب العالمية الأولى كل من فرنسا وانجلترا، وأكثر الخاسرين فيها كان الأمان. وانتصر في الحرب العالمية الثانية الأمريكان والروس، وكان أكثر الخاسرين فيها الأمان أيضًا. أما الحرب الأخرى التي اندلعت لاحقًا فسُميت بالحرب الباردة لأنه لم يحدث فيها نزاع عسكري مباشر بين الدول الديموقراطية والدول الشيوعية، وكانت الحرب تدور على أراض دول أخرى، وانتصر فيها الأمريكيون، وكان الروس من أكثر الخاسرين. وقال بعض المؤرخين إن الحرب هى تجاوز طبيعي للعمل السياسي، لكن مؤرخين آخرين لم يوافقوا على هذه المقولة، وقالوا إن العمل السياسي ما هو إلا امتداد للحرب، وأن الحرب لن تنتهي، بل تتخذ أشكالا مختلفة وتظهر بأساليب مختلفة.

سقطت الشيوعية في عام 1989 في أوربا، واعتقد العديد من الناس أن الديموقراطية انتصرت بلا جدال، لأنها هزمت النظامين الأكثر دموية في تاريخ البشرية؛ النازية والشيوعية. وقالوا إن اللحظة سانحة لإقامة نظام عالمي جديد. وقالوا عن الشيوعية بأنها مسئولة عن موت تسعين مليون أو مائة مليون إنسان. لكن الشيوعيين السابقين قالوا إن الحقيقة ربما تكون خلاف ذلك، لكنه أمر ممكن. لكن علينا ألا نحكم على الأمور بهذه الطريقة، لأن الشيوعيين كانوا يخططون لشيء آخر. وقال المؤرخون إن الشيوعية تعتبر حقيقة تاريخية حديثة، ولا يمكن اعتبارها موضوعًا للبحث، لكن بمرور الوقت ستصبح الشيوعية موضوعًا للبحث التاريخي، وسوف يُقيّمها الناس بطريقة مغايرة، وأكثر موضوعية. وقبل سقوط الشيوعية أطلق الناس على الاتحاد السوفيتي وعلى دول شرق أوربا كتلة الجليد الشرقية، لأن الحياة في تلك الدول كانت جامدة وساكنة، وكأنها متجمدة.

وفي عام 1989 اعتقد العديد من مواطني أوربا الغربية بأن دول شرق أوربا يجب أن تسرع بالانضمام إلى الاتحاد الأوربي، وقالوا أيضًا إن هذا سوف يثري الهوية الأوربية. واعتقد الذين ترقبوا قدوم القرن الواحد والعشرين أن الديمقراطية قد انتصرت. وقالوا إن الأنظمة الشمولية لا يمكنها أن تظهر في المستقبل، لأن مبدأ عمل النظام الشمولي هو السيطرة على المعلومات وإخفاءها، وأن هذا الأمر صار مستحيلًا، لأن الانترنت تُمكن البشر في كل انحاء العالم من تبادل الأفكار والرغبات بسرعة البرق عبر الفضاء. وقام الشيوعيون بقتل طيور النورس، وخطايف البحر، وطيور الأوك في جزر سلوفكا التي كانت تضم أكبر تجمع لمعسكرات الاعتقال، كانوا يخشون من أن يقوم أحد السجناء بإرسال رسالة إلى الخارج باستخدام طائر النورس، فيتعرف الناس على ما يحدث في معسكرات الاعتقال. وقام السجناء الذين عملوا في نقل الأخشاب في معسكرات الاعتقال بمحازاة نهري ايرتش وأود بتقطيع أصابعهم، وربطها بروافد خشبية، والقاءها في الماء ليحملها التيار إلى المدن الكبيرة، على أمل أن يراها أحدهم، ويدرك أن أمور سيئة تحدث في معسكرات الاعتقال. وبمرور الوقت اتضح أن قضية الهوية الأوربية لا تعني شيئًا لمواطني الدول الشيوعية السابقة، وأن سكان شرق أوربا لا يثقون في التاريخ الأوربي. وقال بعض المؤرخين من أوربا الغربية إنه من الضروري إعطاء سكان شرق أوربا المزيد من الوقت، لأنهم تنقصهم معرفة الديناميكية التاريخية. فقد صنعت السنوات الأربعون من حكم الشيوعيين فجوة خارج التاريخ. وقد فهم سكان شرق أوربا هذا الأمر بطريقة خاطئة، واعتقدوا بأن في إمكانهم أن يقدموا لسكان غرب أوربا تجارب أكثر أهمية. ثم سرعان ما انتابهم شعور بالوحدة والانعزال. وقال المحللون النفسيون إن التوقف عن متابعة التاريخ شانه شأن المقاطعة أثناء النكاح. فبلوغ النشوة ليس نتيجة طبيعية لعمل عفوي، لكن أسلوب للتخلص من الإحباط.

وقال أنصار الحركة الخمسينية البروتستانتية إن الإنسان عندما يكثر من الصلوات والتأملات يمكنه أن يتواصل مع الروح القدس. وقد صار أنصار الحركة الخمسينية الذين كانوا يتواصلون مع الروح القدس يتحدثون بلغات غير معروفة وقديمة. فكانوا يقولون على سبيل المثال: ميكرو هيري خورا شميتخانا، أو خاري ساهانا انتروبيخو كاشاهير، أو يلاجيجوكو ايفتوكاي ايانافافو كروكام. وكان علماء اللغة النفسية يقولون إن أنصار الحركة الخمسينية يقومون بإحياء أحد أنشطة العقل الباطن الموجودة في ذهن كل إنسان. وقال علماء الاجتماع إن هذا مجرد رد فعل على تشويه الحياة الدينية والسياسية، والذي يؤدي بدوره إلى تشويه الأعراف اللغوية، وفقدان الثقة في أهمية الحياة والتاريخ، وإلى ضرورة التغيير الراديكالي الذي يعبر عنه بلغة جديدة أو غير معروفة. وكانت هناك حاجة ملحة إلى لغة جديدة، بعدما قام العالم الصناعي بتشويه التقاليد الدينية القيم الاجتماعية. واقترح بعض الناس اختراع لغة عالمية، وقالوا إنه عندما يتكلم كل البشر بلغة واحدة سيسود السلام العالم، فقاموا باختراع لغات كهذه. حدث أثناء الحرب العالمية الأولى أحيانًا أن الجنود القادمين من أقليات عرقية، أو من مناطق لا يتحدثون فيها إلا باللهجة المحلية لم يفهموا اللغة التي كان يصدر بها قادتهم الأوامر، وأدى هذا إلى سوء فهم وحدوث أخطاء استراتيجية. فقد أدت رصاصة من أحد الأعداء إلى قطع اصبع جندي برتوني في عام 1916، فأرسله الضابط إلى الطبيب الذي قرر أن ذهاب الجندي إلى طبيب بجرح تافه كهذا لا يُعد عملًا وطنيًا، واشتكى الجندي أمام القضاء العسكري الذي أمر بإطلاق النار عليه لأن المترجم

المسئول عن شرح القضية وإبلاغ بالمحكمة أن القائد هو من أرسل الجندي إلى الطبيب كان في إجازة. وفي مطلع القرن العشرين ظهر مائتان وسبعون لغة عالمية، أشهرها كانت الاسبرانتو. وقال مؤيدو لغة الاسبرانتو إنها لغة تشبه التليغراف، بل أفضل منه، لأنها تمكن الناس من التواصل عبر سلك خفي. وانقسمت حركة مؤيدي الاسبرانتو في عام 1909 إلى تيارين. دعم الاسبرانتو المسيحيون ومناهضو الكنيسة الاكليروسية، والفوضويون. وقال مؤيدو الاسبرانتو المتدينون إن الاسبرانتو يمكنها أن تُسرع من ظهور مملكة الرب على الأرض، وقال مؤيدو الاسبرانتو من مناهضي الاكليروسية والفوضوين إن الاسبرانتو ما هى إلا شكل من أشكال الوعي المجتمعي، وخطوة أولى نحو ثورة واعية. وكان الشيوعيون أكثر من روّج للاسبرانتو في باديء الأمر، لكن الحكومة السوفيتية اتهمت في عام 1937 مؤيدي الاسبرانتو بالدعوة إلى اللاقومية، وبالتآمر على السلطة السوفيتية، وتم إصدار حكم بالإعدام على خمسة آلاف ونصف الألف من مؤيدي الاسبرانتو، أو بالسجن المؤبد في معسكرات الاعتقال. وتوقع أحد علماء اللغة الشيوعيين أن تنتصر الشيوعية في كل أنحاء العالم، ولن تكون هناك حاجة إلى لغة جديدة في العالم الجديد، لأن اللغة في مجتمع جميع العاملين ستكون بلا فائدة، وبمرور الوقت سينسى الناس اللغة تمامًا، وستواصلون فقط بالتواصل، وبالأفكار الثورية العظيمة.

وقال كل من انتظر حلول القرن الحادي والعشرين إن اختفاء الرقابة على المعلومات يمثل اختفاء لسلطة المؤسسات، والمرحلة النهائية من العملية الديمقراطية.

لأن السلطة سوف تتركز في المستقبل في أيدي أفراد أو مجموعات منظمة من المواطنين. وسوف يؤدي هذا إلى سقوط السياسة التقليدية، وسيمثل مستخدمو الانترنت نمطًا جديدًا من مواطن أطلقوا عليه المواطن العالمي. كان المواطن العالمي أول مواطن يتجاوز القومية، ويتمتع بأول حرية مطلقة في التاريخ، وكان في مقدور أي شخص أن يصبح مواطنًا عالميًا، طالما استطاع التخلص من التفكير القديم، وبدأ بفكر بطريقة مغايرة. لأن العمل ورأس المال والخامات لن يكون لها أي دور في النظام العالمي الجديد، وستحل ديمقراطية المواطن العالمي محل ديمقراطية البرلمانات، وسيصبح كل مواطن عالمي متساوٍ مع نظيره، وسيعيش الجميع في حالة من التأثير المتبادل. واختفت اللغات بمتوسط لغة واحدة أسبوعيًا، وخمسة وثلاثون ألف هيكتارًا من الغابات. وتحدث 96% من سكان الأرض بمئتين وأربعين لغة، كما تحدث 4% من سكان الأرض بخمسة آلاف وثمانمائة وواحد وعشرين لغة، بمتوسط واحد وخمسون لغة لكل إنسان. وأعلنت منظمة الأمم المتحدة في عام 1996 برنامجًا أطلقوا عليه شبكة اللغة العالمية. فقام العديد من أنصار الاسبرانتو والفوضوين بدراسة لغة الاسبرانتو. وفي عام 1910 صدر كتيب بلغة الاسبرانتو، يشرح عمليات اغتيال القادة السياسيين. ودعا أحد الفوضويين الفرنسيين في عام 1921 أبناء الطبقة العاملة المؤيدين للاسبرانتو أن يتخلوا عن الهياكل البرجوازية، وأن ينضموا لهم، وأسسوا فروعًا لهم. وبلغ عدد مستخدمي الانترنت ثلاثمئة وسبعون مليونًا من 180 دولة. واستطاعوا التواصل مع غيرهم ممن لهم نفس الاهتمامات، أو اهتمامات مشابهة، فتواصلوا مثلًا مع اتحاد أمهات سويسرا. وقدموا لهن النصائح بشأن التواصل مع الشبيبة، أو مع مواطنين آخرين كانوا على اتصال روحي بالكائنات الفضائية، وطلبوا منهن أن يخاطبوا مواطنين آخرين.

واستطاعوا أيضًا التواصل مع طلبة المدارس في مدينة وينيبج الذين عثروا على جثة حيوان ابن عرس أثناء رحلة مدرسية، وقاموا بعمل تدريبات أسلوبية عن حياة ابن عرس. وطور الشيوعيون لغة خاصة أطلقوا عليها اسم اللغة الخشبية. كان من المفترض أن تستخدم هذه اللغة في المجتمع الجديد، إلى أن يحين وقت التواصل من خلال قوة الأفكار الثورية. وقال علماء اللغة إن اللغة الخشبية تهدف إلى تقليص التواصل في المجال العام وغير العام، وإلغاء التراكيب اللغوية الخاصة بالمعرفة من العقل البشري. ظهرت اللغة الخشبية عندما بدأت الكلمات تدخل إلى نظام المعاني المقعد، والذي كان يشير إلى آليات القوة في المجتمع. وتم تفريغ الكلمات بالتدريج من معانيها الأصلية، وتحميلها معانٍ أوسع، تمكن المتحدث من الانخراط القوي في البنية السياسية. فعندما كان أحد الشيوعيين يلتقي شيوعي آخر يقول له على سبيل المثال: كيف يسير الحصاد عندكم في المحافظة؟ يرد عليه الآخر ويقول: استدعيت المذارعين لمناقشة خطة العام الحالي، أو يقول: تولّينا الواجبات النهائية بكل نشاط، أو يقول: قدم الرفقاء مقترحات للتحسين. في البداية كان استخدام هذه اللغة قاصرًا على أمور العمل، وعلى القرارات السياسية في الدولة، وبمرور الوقت بدأ الناس يستخدمونها للحديث عن كل شيء، عن حالة الطقس، وعن الاجازات، وبرامج التلفزيون، أو عن أمور أخرى؛ كأن يقول أحدهم إن زوجته بدأت تشرب الخمور وترفض حضور اجتماعات أولياء الأمور.

كان التليغراف يُستخدم في الحرب العالمية الأولى بشكال أساسي في إرسال الأخبار السرية، والتقاط أخبار العدو، وفي إرسال الأخبار المغلوطة بهدف إرباك العدو.

واخترع الانجليز في الحرب العالمية الثانية الحاسب الآلي حتى يفكوا به شفرة الأخبار السرية. كما اخترع الأمريكيون الانترنت في الستينات، خوفًا من أن يقوم الروس في حرب عالمية قادمة بإخفاء معلومات هامة خاصة بالحرية والديموقراطية. وبلغ مستخدمو الانترنت ثلاثمئة وسبعين مليون مستخدم، واستطاعوا من خلاله تبادل الأفكار والرغبات بحرية كاملة وبلا حدود. وكانت شركات السفر تعرض من خلال الانترنت رحلات افتراضية بأسعار مخفضة إلى الدول البعيدة بناء على رغبة كل مواطن عالمي. واستطاعت النساء حجز حيوانات منوية عبر الانترنت من متبرعين مجهولين. وعرضت بعض المعامل حيوانات منوية لرجال معروفين، منهم علماء فلك ومهندسون ولاعبو كرة السلة وغيرهم. كان في مقدور السيدات أن تخترن الحيوانات المنوية بناء على مئة وخمسة عشر معيارًا، منها الجنسية، والأصل، والعرق، والديانة، ومستوى التعليم، والهوايات، والوظيفة، والطول، والوزن، وفصيلة الدم، ولون الشعر، وكثافة شعر البشرة، وحجم الخصية، الخ. فاستطعن شراء حيوانات منوية لعالم بيولوجيا، يبلغ من العمر ستة وثلاثين عامًا، من أصل أفغاني، أسود الشعر، أزرق العينين، أو شراء حيوانات منوية لمهندس طيران من كنساس، عمرة اثنين وأربعون عامًا، تابع للكنيسة المعمدانية، وينحدر من أصول هولندية واوكرانية، أو حيوانات منوية للاعب شطرنج يبلغ من العمر بعين عامًا، أصوله صينية، وله خصيتان صغيرتان. كان متوسط سعر الحيوان المنوي ألف وخمسين دولارًا أمريكيًا، شامل سعر الشحن، وكان في مقدور النساء أن تضيف إلى الطلب تسجيل لصوت صاحب الحيوان المنوي. وكانت التسجيلات تضم جملًا مثل: تحياتي، الجو اليوم جميل، مناسب تمامًا لجولة في الطبيعة. أتمنى أن أحوز على

إعجابكم. وأرادت امرأة ما طلبت تسجيل صوتي لصاحب الحيوان المنوي أن تحصل على خصم بقيمة عشرة في المئة، لأن صاحب الحيوان المنوي لديه عيوب في نطق بعض الكلمات.

انتشر شرب الكحول مع نمو المجتمع الصناعي في أوربا وأمريكا بشكل كبير. وادعي العديد من الناس بأن الكحول أضر بالبشرية، ومنع المجتمع من التطور الطبيعي. وقال الأمريكيون إن إدمان الكحول يُعد مرضًا تقليديًا في المجتمعات الأوربية، وأن الايرلنديون والإيطاليون بشكل أساسي هم من نشروه في الولايات المتحدة. وطلب بعض الأمريكيين باتخاذ إجراءات حيال هذا الأمر، وألا يُسمح للأيرلنديين والإيطاليين بالدخول إلى الولايات المتحدة في المستقبل بدون فحص اجتماعي ونفسي مسبق. ومنعت الحكومة الأمريكية في عام 1919 بيع وشرب الكحول. وفي عام 1921 أعلنت عن تحديد حصة المهاجرين، فخفضت بذلك عدد المهاجرين الأيرلنديين والإيطاليين بنسبة 85%. وفي عام 1914 طالب علماء النفس الأمريكيون بإخصاء مدمني الخمور فورًا بغرض حماية المجتمع ليكون معافي وسليمًا. وكان الأمريكيون فخورين بأن المواطن في الولايات المتحدة يتمتع بالصحة والحياة السليمة، في الوقت الذي كان فيه سكان أوربا يدخنون ويشربون الكحول، ويتنفسون هواء فاسدًا. وألغى الأمريكيون في ولاية ألاباما في عام 2000 قانونًا كان يمنع زواج البيض بالزنوج. وأوصى الأطباء الأمريكيون بأن يتنفس الناس هواء صحيًا، وأن يمارسوا الرياضة، وأن يركبوا الدراجات. حيث أنه الأسلوب الأمثل للحفاظ على اللياقة البدنية. كان التريض على الدراجات يمارسه الرجال الأمريكيون بصفة أساسية، لأن ركوب الدرجات لم يكن مناسبًا للسيدات إلى حد ما. وقال الأطباء إن الدرجات بالنسبة للسيدات بمثابة صديق جنسي، وأن احتكاك مقعد الدراجة بشفة فرج المرأة وبظرها يثير النساء، ويجعلها تغير من عاداتها الجنسية. ومن أجل مساعدة النساء على عدم تغيير ميلوها الجنسية أنتجت الشركات المصنعة في وقت من الاوقات مقعدًا خاصًا به فتحة في منتصف المقعد، لكنه كان غير ملائمًا تمامًا. انتشر ركوب الدراجات بصورة كبيرة في الثمانينات والتسعينات، لأن الناس في الدول المتقدمة أرادوا التمتع بحياة صحية، وممارسة أنشطة تبعث على الإستجمام، الخ. وفي الدول الفقيرة أيضًا كان الناس يركبون الدرجات، لأنه لم يملكون النقود الكافية لشراء سيارة أو دراجة بخارية. وكان 31% من سكان سيراليون البالغين يمتلكون دراجات. في حين انتشرت السيارات في الدول الغنية. وكان راكبو الدراجات في مدن الدول الغنية يضعون أقنعة من الأكسجين على وجوههم لتحميهم من عوادم السيارات التي تضر بالصحة. وكانت العوادم تلوث الهواء، وتنشر في الجو ثاني أكسيد الكربون الذي أسهم في ظهور ما يسمي بالاحتباس الحراري، والذي أدي إلى ارتفاع درجة حرارة الأرض. كانت ظاهرة الاحتباس الحراري في باديء الأمر ضرورية كي تنشأ على الأرض حياة وكائنات ذكية. لكن منذ أن بدأت الصناعة زادت كثافة الغازات في الجو، وقال العلماء إن هذا سيؤدي إلى تغيرات مناخية. وطالب رؤساء الشركات في ألمانيا من مرؤوسيهم الذين يمتلكون سيارات قديمة بألا يتركوها أمام مدخل الشركة، لأن هذا سيعطي إنطباعًا سيئًا. وفي عام 1999 تم طرد أحد المندوبين التجاريين من العمل، لأنه كان يمتلك سيارة قديمة ومتسخة، وكان كسولًا بحيث أنه ترك السيارة أمام مدخل الشركة مباشرة، ولم يذعن للتعليمات. كان الناس في ألمانيا يغسلون سياراتهم تسعة عشر مرة في العام، وفي انجلترا أربعة عشر مرة، وفي فرنسا عشر مرات سنويًا، وفي أمريكا ثماني وعشرين مرة سنويًا. كانت السيارات في الدول الجرمانية

والأنجلوساكسونية تتمتع بأهمية أكثر منها في الدول اللاتينية التي اهتم سكانها بحسن مظهرهم، ونوع رابطة العنق والحذاء، الخ. وأصدرت ألمانيا في عام 1939 قانونًا يمنع اليهود من قيادة السيارات. وكانوا إن أمسكوا بأحد اليهود يقود سيارة كان يرسلونه إلى معسكر الاعتقال.

كان الهاميشيون من مناهضي الانترنت، والحروب، والمجتمع الاستهلاكي، وضد التدخين، وشرب الكحول. رفضوا استخدام الكهرباء، وأضاءوا بيوتهم بمصابيح الكيروسين، وعاشوا في مستوطنات. كانوا يذهبون الي المدينة على الخيول، ويبيعون مواد غذائية غير ضارة بالبيئة، ومطاحن بيئية للقهوة، ودفايات بيئية، ومصابيح كيروسين، وشموع، وخفاقات البيض. وانتظروا نهاية العالم التي ستأتي مع ظهور الانترنت واندلاع الحروب، وغيرها. واعتقدوا أن هذه الأمور ستجعلهم من المُختارين، فيجلسون عندما على يمين العرش الإلهي. وكان شهود يهوه يقولون إن التدخين والكحول يلوث الدم، فرفضوا تناول المقانق والسلامي، ورفضوا عمليات نقل الدم، لأن اختلاط الدم يتنافى مع القوانين الإلهية، كذلك تناول السلامي أو شرب الكحول أو المعاشرة الجنسية خارج العلاقة الزوجية.

كذلك رفضوا الخدمة في الجيش. وقالوا إنهم ينتمون إلى المملكة الإلهية، وليسوا معنيين بالأمور الدنيوية. وكثير منهم مات في معسكرات الاعتقال في ألمانيا وفي الاتحاد السوفيتي، لأنهم بمواقفهم هذه كانوا يدمرون الفكر الثوري، وينشرون في المجتمع الأفكار الهدامة المناهضة للثورة. وقام الشيوعيون بتحديد ستة عشر نوعًا من العناصر الهدامة والمضادة للثورة. وأعلنوا في عام 1919 حصصًا ملزمة لمختلف المناطق الإدارية في الإتحاد السوفيتي. ضمت الحصة الأولى عدد العناصر المضادة للثورة والهدامة، التي يجب إطلاق النار عليها في كل إقليم. وضمت الحصة الثانية عدد العناصر التي يجب إرسالها إلى معسكرات الاعتقال. كما أعدت الحكومة السوفيتية أيضًا قائمة بالقواعد التي تحدد توزيع بطاقات التغذية على المواطنين، وكانوا يطلقون عليها الحصص الطبقية. ضمت القائمة في البداية خمسة فئات من المواطنين. لكن رأى الشيوعيون فيما بعد أن عدد الفئات لا يتناسب مع الأوضاع الاجتماعية والسياسية في المجتمع. فقاموا بزيادة القائمة إلى ثلاثة وثلاثين فئة. ضمت الفئة الأولى جنود الجيش الأحمر، وكبار السياسيين، وآخر فئة ضمت الفاسدين، والمشردين والسفاحين، ومحبي موسيقى البوب، والمواطنين ذوي أصول مشكوك فيها، وباقي العناصر الهدامة التي انتظرت دورها للذهاب إلى معسكرات الاعتقال. وعندما اندلعت ثورة أكتوبر في عام 1917 اعتقد بعض محبي موسيقى البوب أنها بداية نهاية العالم، وأن الناس عليهم أن يستعدوا لها. وانتشرت بشدة في القرن العشرين الجماعات التي كانت تؤمن بنهاية العالم، ونظم بعض منها عمليات انتحار جماعي لأعضاءها ومناصريها، لأنها كانت الطريقة الأكيدة التي تؤمن لهم المستقبل في العالم الآخر. وقامت بعض الجماعات ببناء غرف كبيرة محصنة تحت الأرض، مجهزة بالكهرباء والصرف الصحي، حتى يأوي إليها أعضاءها ومناصريها في المرحلة الانتقالية التي ستحدث بعد أن ينتهي العالم، وقبل أن يأتي يوم الحساب. وباع الهاميشيون في عام 1999 من طواحين القهوة، والشموع، وخفاقات البيض، وغيرها أكثر من المعتاد باثنى عشر ضعفًا.

لأن الناس كانوا في خوف شديد من أن فيروس الألفية الجيدة سيبطل عمل الأجهزة الكهربائية والكهرباء. وقال علماء الاجتماع بأن الخوف من حوادث الأنظمة الكهربائية التي ستُوقِف عمل أجهزة التلفزيون، وأفران المايكرويف، وأجهزة الصرف الآلي ينبع من الخوف الدفين من نهاية العالم. واعتقد بعض الناس بأنها ستكون لحظة فارقة في تاريخ الحضارة الغربية التي ستتحول إلى فوضى واضطرابات اجتماعية وغيرها. وسوف تُمكِّن المجتمع الغربي من التحرر من ديكتاتورية التقنية، والدخول إلى عصر جديد، ومتناغم، وأكثر روحانية. وقامت حكومات بعض الدول من طباعة مخزون من النقود. وفي كندا نظمت الحكومة تدريبات للمواطنين على عمليات الإخلاء. وقام مواطنو انجلترا والدنمارك بتخزين السكر والدقيق في أحواض. وفي فنلندا قام أصحاب الصيدليات ببيع كل مخزون اليود، الذي كانوا يوصوا به في حالة حدوث كوارث نووية. وخاف الفنلنديون من أن فيروس الألفية الجديدة سُيوقِف أنظمة الأمان في محطات الكهرباء النووية في روسيا.

وقال علماء الاجتماع إن فيروس الألفية الجديدة يتسلل إلى منطق الخيال الاجتماعي الحديث. واتخذ الشر في القرن العشرين صورة شيء متناهي الصغر. وصار الناس لا يخافون من الأشياء الكبيرة المعقدة، مثل القاطرات وغيرها، ويخافون من الذرات، والفيروسات، والجينات، والبريونات. وقال خبراء التحليل النفسي إن فيروس الألفية الجديدة يلعب في حياة المجتمع دور قاتل البيض الذي يسمح لجيل تقني جديد بالاستقلال، وبالبهجة، والنشوة.

كانت توجد فوق مدخل معسر الاعتقال في بوخنفالد عبارة تقول: كل على قدر عمله. كان المعسكر يوجد بالقرب من مدينة ايترسبرج، وكان اسمه في البداية على اسم المدينة. وكان اسم ايترسبرج معروفًا في التاريخ الألماني، لأن مشاهير الأدباء والفلاسفة كانوا يسافرون إليها في القرن الثامن عشر والقرن العشرين. كانوا يذهبون للتنزه، والجلوس تحت شجر البلوط، يناقشون أهمية الحضارة الأوروبية. افتُتح معسكر الاعتقال في مدينة ايترسبرج في عام 1937، وقررت اللجنة الثقافية للحزب النازي فيما بعد في مدينة فيمار بأنه ليس من المناسب ربط اسم معسكر الاعتقال بالموروث الثقافي للشعب الألماني، وطالبت المسئولين بتغيير الاسم. بلغ عدد من لقي حتفه في معسكر بوخنفالد في الفترة من 1937 وحتى 1945 خمسين ألف فردًا من اعداء ألمانيا النازية. وفي الفترة من 1945 وحتى 1950 مات في معسكر بوخنفالد سبعة آلاف من أعداء الاتحاد السوفيتي وأعداء جمهورية ألمانيا الديموقراطية. كان معسكر بوخنفالد متعدد الأغراض. كان بمثابة مكان للعمل والإبادة في نفس الوقت. كانوا يضعون وشمًا للمساجين برقم مسلسل بعد وصولهم المعسكر. كان المساجين في الأشهر الأولى من الحرب يحصلون على أوراق لكتابة مراسلاتهم مع أقرباءهم، طُبع عليها نص يقول: الإقامة جيدة، ولدينا عمل نمارسه، ويعاملوننا بطريقة جيدة، ويسهرونا على رعايتنا. وكان الأقرباء بعد أن يقرءوا الرسالة، ويشعرون بفقدانهم لقريبهم هذا، يذهبون إلى الجهات الألمانية، ويعبرون لهم عن رغبتهم في اللحاق بأقاربهم في ذلك المعسكر. وأرسل أحد السجناء اليونانيين في معسكر بوخنفالد رسالة إلى أبيه في مدينة بيرجوس، وبعد مرور ثلاثة أشهر جاء الأب لزيارة ابنه، فهجم الابن على أبيه على رصيف المحطة، وخنقه بيديه قبل أن يطلق الألمان النار عليه.

كانت تُجرى أيضًا في معسكرات الاعتقال تجارب علمية. كان الأمر يتعلق أساسًا بطرق مختلفة لمنع الخصوبة الجنسية والإخصاء، أو تجارب على تحمل الألم.

وكانت تجرى بشكل أساسي على شباب المعتقلين، والسجناء الأقوياء، حيث يقطعون جزءا من أقدمهم، أو يجتزون جزءًا من لحمهم عظامهم. وأحيانًا كان الأمر يتعلق بتجارب على التوائم التي صنعت فرضيات جديدة في علم الجينات، والتي دارت حولها العديد من حلقات النقاش في الدوائر العلمية. كان عندما يظهر بين السجناء رجل تبدو عليه بوضوح ملامح الرجل اليهودي، كان النازيون يقطعون رأسه، ويُعدونها ليرسلونها إلى المدارس الألمانية، ليتعرف طلاب المدارس بسهولة على ملامح الرجل اليهودي. كان اليهود يُعرفون من أنوفهم المعقوفة، ونظراتهم الزائغة، وعيونهم التي تنم لؤم، وأصابعهم الطويلة النحيلة. وكانت أجسامهم في الغالب هزيلة ونحيلة، ذلك لأن الطبيعة كانت تلفظهم من رحمها. حدث تقدم كبير في القرن العشرين في مجال الطب، فتوصل الأطباء إلى إنتاج البنسلين، والتطعيم الإجباري، ونقل الدم، وموانع الحمل، والى وسائل التحفيز الجنسي. وكانت النساء تلد في المستشفيات، ويحظون برعاية صحية على أعلى مستوى.

واخترع العلماء الهولنديون نقل جينات البقر، ووضعوها في مضغة الجينات البشرية. كانت البقر بعد أن تصل إلى سن مناسب، تُدِر ألبانًا مثل ألبان البشر، وكان ينصحون بها في حالات العلاج الوقائي لتصلب الأنسجة. لكن الناس الذين آمنوا بالعصر الجديد كانوا يقولون إن الطب الحديث يقتل في الإنسان القدرة على التحكم في الذات. وبدلًا من الذهاب إلى الطبيب ومن الطب الوقائي كانوا ينصحون بطرق خاصة للاستشفاء بدون علاج. فكان المريض يحدد بنفسه من خلال استدعاء الأفكار الايجابية تركيبته العقلية، فيتحول إلى حالة فيزيولوجية جديدة، يتخلص فيها من المرض. وكانوا يقولون إن التغيير الحقيقي في العالم لن يحدث بثورة علمية، ولا بديانة جديدة، ولا بإصلاح اقتصادي أو سياسي، بل بالارتقاء الروحي للانسان، والذي سيجعل منه إنسانًا مسئولًا ومتسامحًا، يستبدل الذاكرة التاريخية بالذاكرة الكونية. وقام الأمريكيون في مدينة أوريجون بتقنين الانتحار، بحيث يكون تحت إشرف الأطباء. كما قام الهولنديون بوضع قوانين للموت بناء على طلب الشخص. لم يكن هناك مُعدَمين، بل امتلك كل إنسان ثلاجة، وتلفزيون. وقام بإجازات مدفوعة الأجر، الخ. واخترع العلماء الفينيل، والراتينج الصناعي والبوليسيلين، ومعالجات المعلومات الدقيقة. كما اخترعوا المنتجات ذات الاستخدام الواحد، مثل الولاعات، والأقلام، وماكينات الحلاقة، والأغلفة، والزجاجات، وحفاظات للأطفال وللنساء، وآلات التصوير، وإبر الحقن. وقال علماء الاجتماع إن المجتمع دخل في عصر جديدة للمنتجات ذات الاستخام الواحد.

ازدادت الدول المتقدمة ثراءً، وارتفعت نسبة البطالة لأنه كلما قلل الإنسان من العمل، ازداد ثراءً. وابتكرت وكالات الإعلان إعلانات لطيفة ومبتكرة، وأعلنت شركات التأمين حملات بعنوان: كن واقعيًا وطالبنا بالمستحيل! وقالت الشركات المصنعة للسيارات: الحكومات يعوزها الخيال. وقال مصنعو المنظفات: الصفاء سيظل باهتًا، حتى يبتكره أحدهم. وصدرت في الدول الديموقراطية قوانين تقول إن الرئيس لا يجب أن يظل في منصبه لأكثر من فترة أو فترتين انتخابيتين. تستمر الواحدة في الغالب أربع أو خمس سنوات، حتى يسمح بظهور أفكار جديدة غير مستهلكة،

ويمكن من تجديد ديناميكي للمجتمع. وقال الفلاسفة إن العالم قد وصل إلى حضارة الاستنساخ، وأن كل شيء ما هو إلا نسخة من نسخة مستنسخة من نسخ أخرى. وابتكر الأطباء طريقة لإنتاج أطفال بدون علاقة جنسية، بوضع الحيوانات المنوية والبويضات في حضّانات. وقيل عن الأطفال الذين وُلِدوا بهده الطريقة أطفال الأنابيب. وولد أول طفل أنابيب في عام 1978. واقترح الطبيب الذي ابتكر هذه الطريقة أن يقوموا بشطر البويضة في الحضّانة، بما يسمح بمولد توأم بديل. وتم وضع التوأم الأول في رحم الأم والثاني في جهاز التجميد. ويمكن استخدام الطفل الموجود في جهاز التجميد لاحقًا كقطع غيار للطفل المولود من رحم الأم عندما ينمو وتستهلك أعضاء جسده.

كان السلاف والغجر من بين الأعراق الأقل قيمة. كانت لهم نظره كئيبة، وإمكانات ذكاء محدودة، وأظهروا ميولًا طبيعية للتبعية والعبودية. وكانوا في نفس الوقت كسالى، وغير مؤهلين للقيام بأبسط الأعمال. وكان النازيون يطلقون على السلاف اسم: Untermenschem، أي انهم على درجة تطور أدني من البشر.

وكانوا يأخذون أطفال السلاف مستطيلي الجمجمة، ممن أثبتوا أصولهم الألمانية، ويسلمونهم لأسر ألمانية لتتبناهم. وقدر النازيون نسبة السلاف مستطيلي الجمجمة بحوالي 12% في بولندا، و25% في روثينيا الكارباتية، و35% في أوكرانيا، وما يقرب من 50% في التشيك. كان الأمان يطلقون على التشيك والغجر اسم Lebensunwert بمعنى شعوب لا تستحق الحياة. مات في معسكرات الاعتقال نصف مليون غجري، وثلاثة ملايين يهودي. أكثر من من مليونين ونصف المليون يهودي ماتوا في الجيتوهات، وأثناء الحملات وعمليات الاعدام الجماعي أثناء نقلهم إلى معسكرات الاعتقال. وصدرت في عام 1941 تعليمات للوحدات العسكرية الخاصة المسماة Einsatzgruppen بأن يقتلوا ما استطاعوا من اليهود في الأراضي التي احتلها الألمان، وبعد مرور ستة أشهر قتلوا منهم 800 الف. وكانوا يطبعون على قطع الصابون المُرسلة للجنود الألمان أحرف RJF. واعتقد بعض المؤرخين بأنها كانت اختصار لكلمة REINES JUDENFETT، بمعنى شحم يهودي خالص.

وقال مؤرخون آخرون بأنها ربما تكون اختصار لاسم المركز الصناعي للشحوم ووسائل التنظيف. وفي عام 1905 أصدر معهد القضية الغجرية الألماني Zigeunerbuch كتاب الغجر يشرح فيه علماء النفس والأنثروبولجيا وعلماء الأحياء أسباب تدني الأصل الغجري، والأسباب التي تجعل منهم عنصر ضار بالمجتمع. وأصدر الأمان في عام 1922 بطاقة تحيد هوية خاصة بالغجر، كانت بديلًا عن شهادة الميلاد. وقرروا في عام 1939 تجميع الغجر في معسكرات الاعتقال، واتخذوا قرار نهائي بشأنهم، أطلقوا عليه: الانتحار الجماعي. وفي عام 1941 اخترع أحد البولنديين مستطيل الجمجمة لغة عالمية جديدة باسم جلوبال جيرمان.

وأنشأوا في عام 1936 معهدًا نازيًا، أطلقوا عليه اسم نبع الحياة، يتم فيه تخصيب أية امرأة ألمانية ترغب في أن تحمل بطفل يخدم الوطن. أنشأت المؤسسة ثمانية معاهد تخصيب، وأربعة عشر مستشفى للولادة، وستة حضانات للأطفال، كانوا يضعون فيها أطفال الأمهات الألمانيات

اللواتي تم تخصيبهن من رجال مختارين من مجموعة Schutzstaffel، وأيضًا أطفال السلاف مستطيلي الجمجمة. ووضعوا على مدخل معاهد التخصيب رمز يتكون من نبع وبرج سماوي على شكل عربة صغيرة، بها نجمة الشمال التي كانت ترمز إلى العرق الشمالي. وصدرت في عام 1944 أوامر لمعسكر الاعتقال في بيركيناو بإرسال جميع ما تبقى من الغجر إلى غرف الغاز فورًا، وأعلنت إدارة المعسكر عن نوبات ليلية طارئة، اطلقوا عليها اسم ليالي الغجر. في ذلك الوقت ظهرت لغات عالمية أخرى وهى الكوسمولينجو، اللاتينولوس، الموندیال، والكوسمان، والكومون، والنيوترال، والسيمبوليمو. وأصدر مجلس اليهود العالمي في عام 1985 إعلان بإن اليهود يتعاطفون تمامًا مع الشعب الغجري، لكن عمليات قتل ضد الغجر لم تكن عمليات تطهير عرقي بمعنى الكلمة، لأنها لم تكن قائمة على أسس عرقية، بل على أساس عملية إجتماعية تهتم بتحسين النسل.

قسم المؤرخون فيما بعد النظم السياسية في القرن العشرين إلى ثلاث مجموعات؛ النظم الشمولية، والفاشستية، والديموقراطية. كانت الشوعية والنازية من النظم الشمولية، والديكتاتوريات الفاشية والمتسلطة كانت نظمًا فاشستية، ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى في إيطاليا، وأسبانيا، والبرتغال، وبلغاريا، واليونان، وبولندا، ورومانيا، والمجر، واستونيا، ولاتفيا، وغيرهم. وكان الشيوعيون يقولون إنه لا فرق بين الفاشية والنازية، لكن غالبية المؤرخين لم تتفق على هذا الأمر، وقالت إن الفاشية مفهوم عام، وقابل للتنفيذ في أية مكان، وقادر على التأقلم الفوري مع الظروف التاريخية والثقافية، في حين أن الشيوعية والنازية هما نظامان لا يمكن تكييفهما، لأن الأمور فيهما تخضع تمامًا للأيدلوجية، حيث أنهما نظامان شموليان. النظام الفاشي إذن قابل للتكييف ويمكنه أن يكون يمينيًا أو يساريًا، وهو مُخصص للمواطنين كبار السن، وأيضًا لصغار السن الثوريين. فهو يَعد الفئة الأولى بعودة النظام، والفئة الثانية بنشأة عالم جديد، يصبح كل شيء فيه شابًا إلى الأبد. وكان الشيوعين يشاركون الفاشيين في فكرة العالم الأبدي الشاب. غير أن الشيوعيين لم يهتموا بإعادة النظام لكبار المواطنين. وكان الشباب يتطلعون إلى المستقبل، والرياح التي تداعب حبات الثمر، والفضاء التي تسطع فيه الشمس. وقال المحللون النفسيون بأن اتفاق غالبية الألمان على الأيدلوجية النازية كان دليلًا على الإحباط الجنسي، وأن الألمان كانوا يبحثون عن أب لهم، في حين كان الإيمان بالشيوعية مظهرًا من مظاهر الانحراف الجنسي في مرحلة الطفولة.

وأعلن الشيوعيون مقولة العقل السليم في الجسم السليم، وقالوا إن التحليل النفسي يُعدّ مظهر لسقوط الطبقة البرجوازية التي يُجبَر الناس فيها على تعويض الإحباط والمشاعر الدونية، وهذا ما يستدعي فيهم الرأسمالية. واقترح معهد أبحاث تحسين النسل في لينينجراد عام 1929 اختيار أفراد ماهرين من بين صفوف العمال السوفيتيين، وتأسيس مراكز تلقيح. يقوم فيها الأشخاص المختارون بتلقيح النساء السوفيتيات. وقال علماء تحسين النسل في لينينجراد إن العامل الماهر يمكنه أن يقدم للشعب السوفيتي ما يقرب من 1100 عامل مؤهل، وينشر الصحة في مجتمع جديد، خالي من الطبقية. ونظم الشيوعيون تمارين صباحية للعاملين في المصانع ودواوين الحكومة، وأذاعوا لهم أغان مرحة عبر الراديو كي تساعدهم على العمل. كما نظموا مسيرات،

واحتفالات مليئة بالرموز وبالنمازج البشرية الحية. وكانوا يقولون إنها نوع جديد من الفنون، يستلهم صوره من ينبوع الشعب. وكان النازيون يقولون إن الفن ليس مجرد مسألة جمالية، بل بيولوجية، وأن الفن الحقيقي هو روح الوطن، وهو ملك للجميع. وقال الشيوعيون إن الفن يجب أن يبعث على التفاؤل، مثل الشرنقة التي تخرج منها الفراشة، ويجب أيضًا أن يكون حازم، مثل خطوات الشعب نحو المستقبل. وكانوا يروجون للفن التذكاري الذي يظهر عن بعد، مثل التماثيل أو التصوير الجصي، حتى يتمكن المواطن البسيط من تذوق الفن. وقال النازيون إن الفن الحديث مُنحطّ، وأن التعبير الفني الحديث يجب أن يكون مصدره الشعب. وتشكك الشيوعيون في فنانين كانوا يتعمدوا صناعة فنون منحطة، تميزهم عن باقي الشعب البسيط. وقالوا إنه من الضروري العثور على تعبير فني جديد، وأفكار مبتكرة وجديدة. لكن بمرور الوقت صارت الأفكار المبتكرة تزعجهم، لأنها قد تكون مضهرًا من مظاهر التفكير البرجوازي الذي يحول دون حدوث تغييرات ثورية حقيقية تحت ذريعة الحداثة. وصاروا يتشككون في أناس يطلقون ذقونهم، أو يرتدون قباعات، أو معاطف غريبة، أو يرسمون شيئًا ما في مفكرتهم وسط المقهى. وقالوا إن الفن الحقيقي يجب أن يكون إنعكاسًا للحياة الجديدة، وأن يبعث على التفاؤل، وجادًا في الوقت نفسه. وقاموا بتنظيم حلقات للتمارين، وأذاعوا على مسامع العاملين أغنيات من محطات الإذاعة.

كان الشيوعيون أول من أنشأ معسكرات الإعتقال في عام 1918، كي يعجلوا بانتصار الثورة، ويدعموا ديكاتورية الطبقة العاملة. وقال المؤرخون إن خمسة عشر أو عشرين مليون مواطن لقوا حتفهم في معسكرات الإعتقال السوفيتية، وقضى واحد من كل سبعة مواطنين سوفيت في السنوات الخمس والثلاثين التالية جزءًا من حياته بها. وحدثت ثورة في أيرلندا في عام 1916. وفي عام 1917 تم نقل ما يزيد عن مليونين من جنود الجيش الروسي الذين أراداوا العودة إلى ديارهم حتى لا يفوتهم توزيع الأراضي، ولا الماشية التي وعدتهم بها الحكومة التي أعقبت سقوط حكم القيصر. وسميت الثور الايرلندية بثورة الشعراء، لأن ثلاثة أرباع المجالس الثورية شكلها الشعراء الذين أرادوا تأسيس الجمهورية الايرلندية، واعتمدوا على أن الجيش الانجليزي لن تكون لديه الموارد اللازمة للتدخل الفعّال. حيث أن غالبية الجنود الانجليز كانوا يحاربون في فرنسا وفي بلجيكا ضد الألمان. وكان ضروريًا تدعيم ديكتاتورية البروليتاريا، لأن الشيوعيين اضطروا للحرب على البرجوازية، وضد العمال في المدن، والفلاحين في القرى الذين فهموا الثورة بطريقة خاطئة، فثاروا، واضربوا عن العمل، ورفضوا تحقيق الأهداف الثورية. فمات اثنان وستون متمردًا، ومئة وخمسين جنديًا انجليزيًا في ثورة الشعراء. وصادر الشيوعيون المحاصيل، والماشية، والدواجن، وغيرها من الفلاحين الذين قاموا بأعمال عدائية ضد السلطات السوفيتية، وسرقوا أثناء الليل المحاصيل من مزارع الاتحاد السوفيتي الجماعية، ورفضوا تسليم الأبقار أو الدواجن، ثم أرسلوهم إلى معسكرات الاعتقال، أو أطلقوا عليهم النيران. واعتقد الشيوعيون فيما بعد بأن أفضل طريقة لإجبار العدو على تغيير موقفه هى إحداث مجاعة في المناطق الذراعية في أوكرانيا، وشمال القوقاز، أو في كازاخستان. فقاموا بتغيير مسار خطوط السكك الحديدية، وأغلقوا الطريق والمحلات التجارية، ومنعوا إقامة الأسواق، الخ. فمات ستة ملايين مواطن جوعًا. وكان الناس يخبئون جثث ذويهم، ويبيعونها في السوق السوداء أو للجيران مقابل أموال، يشترون بها لحوم جثث أخرى، لأنهم لم يرغبوا في أكل لحوم أشخاص تربطهم بهم ذكريات طيبة. وكانوا يصنعون

حساءً من عظام الجثث، ويضعون من كبدهم حشوًا للفطائر. وحدث أن جلس أحد الفلاحين بالقرب من أحد المقابر الجماعية في مستوطنة بوجوسلوفكا، وراح يطهو لحم إحدى الجثث، لكن الشيوعيون عثروا عليه، وأطلقوا عليه النار لإرهاب الآخرين. كانت معسكرات الاعتقال تنقسم إلى نوعين: معسكرات للعمل، ومعسكرات خاصة. اهتموا في النوع الأول بدعم مفهوم العمل الجاد لدى مدمني الخمور والسفاحين والمتطفلين، وكل من لم يلتزم بالحد الأدنى لورديات العمل أو ترك مكان عمله، ضاربًا عرض الحائط بما منصوص عليه في خطة العمل الثورية. وفي النوع الثاني كان يعمل الأفراد المشكوك في أمرهم والخطرون، وأعضاء الأحزاب السياسية الأخرى، والعمال الذين شاركوا في الاضرابات، والموظفون المتهمون، وأفراد الطبقة البرجوازية المتعفنة، والمتآمرون، والمجانين، والفوضويون، والاقطاعيون، ولصوص حقول البطاطس، والمندوبون الثوريون الذين لم يرسلوا إلى المعسكرات عدد كافٍ من مناهضي الثورة. وأُلغيت معسكرات العمل في عام 1922، وبقيت المعسكرات الخاصة. وراح الجميع يعمل من أجل سعادة الجميع. وأرسلوا في عام 1923 من موسكو إلى معسكر الاعتقال في مدينة موروم اثنين من المشاغبين، كانا يسخرا من العمال وهم عائدين من العمل، ومِن أحد الخرّاطين الذي تأخر عن العمل ثلاث مرات متتالية. وفي إحدى الليالي قام هذا الخراط بضرب هذين المشاغبين بلوح خشبي، لأنه كان يلقي نكات ساخرة من الاتحاد السوفيتي، وكان يخاف أن يسمع أحدهم نكاته الساخرة ويوشي به، فيقتله الشيوعيون. وبعد الحرب العالمية الثانية كانوا يرسلون إلى معسكرات الاعتقال أسرى الحرب الروس الذين عادوا إلى ديارهم، وكانوا متهمين بنقص الروح القتالية، وميل إلى التفكير الأناني. وبلغ عدد أسرى الحرب الذين عادوا إلى الاتحاد السوفيتي مليونين ومائتين وسبعين ألف أسير في معسكرات الاعتقال، وقضوا حوالي عشر سنوات هناك إلى أن لقوا حتفهم من الاجهاد أو الأمراض أو الطاعون.

ومن أكثر الأسباب التي أفضت إلى الموت كانت تقرحات البرد، وغرغرينا القدم، لأن الناس كانوا يخافون أن يسرق أحدهم أحذيتهم أثناء الليل، فكانوا ينامون وهم يلبسونها.

وقال المؤرخون إن إعلان حالة التعبئة العامة في عام 1914 كان يتماشى مع المزاج العام في المجتمع الألماني، والنمساوي، والصربي، والفرنسي، والإيطالي، إلخ، وأن الحرب العالمية الأولى ربما كانت أول حرب في التاريخ تأخذ الطابع القومي والوطني. وعندما كانت الجنود تسير في شوارع المدينة وتتجه نحو محطة القطارات كان الناس يتجمعون حولها، ويرددون شعارات وطنية، ويدسون أزهار القرنفل في أفواه بنادقهم، والفرق الغنائية تغني بحماس. في عام 1914 لم تكن هناك خدمة عسكرية إلزامية في انجلترا. ورغم ذلك تطوع ما يزيد عن مليون ونصف مواطن. كانوا يسيرون نحو محطة القطارات وهم سعداء بأن الحرب أحيت في نفوسهم الشعور بالكرامة، وحب الوطن، والشجاعة، والتضحية. وهي أمور توارت في ظل المجتمع الصناعي الحديث. وما أن تواصلت الحرب زاد عدد الألغام، والمتاريس، وحالات الجرب، والفئران. وصار الجنود يتشككون في الأسباب التي يحاربون من أجلها، وبدؤوا يشعرون بالوحدة والرفض من الآخرين. كانوا يطلقون النار على الفئران، ويصنعون طفايات سجائر، ويحفرون عليها عبارات، مثل: تعيش الفرقة 25! زكرى الحرب، في صحتك! وأيضًا لا حروب بعد اليوم! بعد انتهاء الحرب العالمية

الأولى تزايد عدد الداعين إلى السلام في كل من فرنسا وانجلترا. وكانت استطلاعات الرأي تشير إلى ميل إلى السلم. في حين كان الألمان يحيكون الملابس العسكرية، وينتجون الدبابات والطائرات. واندلعت الحرب الأهلية في أسبانيا، وحارب الفاشيون ضد الشيوعيين، وحارب الشيوعيون الفوضويين من أجل دعم الثورة. وفي حين أراد الفوضويون أن تكون الثورة دائمة، أرادها الفاشيون أن تكون وطنية. وقال دعاة السلام بأن السلام هو القيمة العليا، لكن النازيون كانوا يقولون إن الانتصار هو أفضل قيمة على الإطلاق، وأن أسمى ما قد يحدث للإنسان يكمن في الصراع بين الخير والشر. وقال الشيوعيون إنه من الضروري الإسراع في تحقيق انتصار الشيوعية. ثم ندلعت الحرب الأهلية في أسبانيا، وقام الألمان بالهجوم على بولندا، والدنمارك، وهولندا، وبلجيكا. وهجم الروس على بولندا، واستونيا، وليتوانيا، ولاتفيا، وفنلندا، ورومانيا، وبات واضحًا بأن الحرب العالمية الثانية قد بدأت.

وأبدى المؤرخون إعجابهم بالحرب العالمية الثانية أكثر من الأولى، لأن الحرب العالمية الأولى كانت تتميز بالوطنية والقومية، في حين كانت الحرب العالمية الثانية تتميز بأنها كانت حرب بين الحضارات. كان الناس في الحرب العالمية الأولى يحاربون من أجل فكرة ضيقة الأفق، لا تليق إلا بما مضى، في حين كانت الحرب العالمية الثانية تدافع عن مباديء إنسانية. توقف الناس عن تأييدهم للسلم بعد الحرب العالمية الثانية، وراحوا يفكرون في موعد اندلاع الحرب العالمية الثالثة بين الدول الشيوعية والدول الديمقراطية. وانتشر الجواسيس في كل مكان، يجمعون الأخبار. وفكر القائمون على وزارات الإرشاد في كيفية الفوز بانتصار حاسم. وابتكر العلماء أسلحة جديدة، وغازات قتالية جديدة، وقنابل، ورؤوس نووية، وحاملاتها، واخترعوا أيضًا القنابل الطائرة، وأجهزة التشويش الكهرومغنطيسية، وأشعة النيترون، والجزيئات السامة. كذلك اخترعوا كلمات وتراكيب لغوية لتسمية الاختراعات الحديثة، والاكتشافات العلمية، والظواهر العلمية، والنظريات الاجتماعية الجديدة، مثل نظرية النسبية، وثقب الأوزون، والتحليل النفسي، والتلفزيون، ويوغوسلافيا، وجرائم ضد البشرية، والراديو، والموديم، والدادية، وعلم الجينات الاجتماعية، وما بعد الحداثة، والتكعيبية، وعلم الأحياء الفلكي، وتفكك النواة، والعلاقات الاجتماعية، الخ.

وقال بعض الفلاسفة إن نظام العالم يتناسب مع آليات التواصل التي تتمتع بعلامات متغيرة، لكنها مع ذلك معلومة، وأن تصنيف تلك العلامات خال من المنطق، وأن كل شيء ليس سوى لعبة، ونتيجة صدفة، وفوضى، وخراب، ومدلولات، وغيره. لكن رغم ذلك فالعلامة تحمل معناها في جوهرها، رغم أننا لا نعرف هذا المعنى. وقال فلاسفة آخرون بأن العلامات التي يبنى منها النظام والعالم لا معنى لها، ومع غياب المعنى يختفى الفاعل والحقيقة كلها، وأن التاريخ ليس سوى حركة دائمة لا شكل لها. وهذه الحركة لا تعبر عن شيء، وكل شيء ما هو إلا وهم، ومجرد محاكاة. كما أن سقوط البشرية أمر منطقي، لأن الإنسانية قد وصلت إلى طريق مسدود. فقد حصلت على ما أرادت، ولديها ما يكفيها من القيم، والحرية، والفردية والشمولية، والشفافية، الخ. وقالوا إن أنصار المذهب الإنساني قد حصلوا على ما كانوا يطمحون اليه؛ ألا وهو عالم متفرد، ومتفاعل، وإيجابي، وشفاف، وفعّال. وها هو يختفي، ويتحول إلى عالم زائف، وسيتحول

الواقع في النهاية إلى واقع افتراضي. وقال بعض علماء الرياضيات إن الواقع ما هو إلا وهم، وأن الأمر في الحقيقة يتعلق بتركيبة رياضية في العقل البشري، الذي يفسر الموجات القادمة من بُعد آخر مختلف، وأن هذا البعد يتجاوز المكان والزمان، وأن العقل ما هو إلا هو صورة مجسمة، تعكس الكون الذي هو بدوره صورة مجسمة أخرى. وفي عام 1993 أوصت سيدة عجوز، كانت يومًا ما تُناصر النازية، بوضع مخها في أحد المعامل في مدينة كودان، حتى يرى أحفادها وحفيداتها الصور التي انطبعت فيه يومًا ما، لأنها لم تتمكن من وصف حياتها لهم.

وعبر أحد الفرسيين في عام 1907 بحر المانش بطائرة ذات محرد، وفي عام 1910 قام أحد مواطني بيرو بالطيران فوق جبال الألب الإيطالية بطائرة ذات محرك. وفي عام 1911 استخدم الإيطاليون طائرة ذات محرك في الحرب ضد الأتراك، وفي عام 1914 ابتكر المهندسون مكانًا لوضع بندقية آلية في الطائرة، تمكنها من إطلاق النار أثناء الطيران. وفي عام 1915 توصلوا إلى طريقة تسمح للطائرات بإلقاء القنابل. وفي عام 1945 اخترع الأمريكيون القنبلة النووية، وألقوها على مدينة كانت تسمى هيروشيما. وكانت الطائرة تسمى Enola Gay. ولاحقًا فسر قائد الطائرة الأمر للصحفيين، بأن الاسم يعود لجدته الأيرلندية، وهو اسم يبعث على البهجة. دمر الانفجار غالبية البيوت في محيط ثلاثة كيلومترات، وتكونت في السماء سحب الدخان التي ظهرت عن بعد وكأنها فِطر. وبنوا في إحدى المارس مركزًا للاسعافات الأولية للمصابين. وقام طلبة المدارس الذين نجوا من الانفجار بإزالة الديدان من جروح المرضى باستخدام عصي. وعندما كان أحد المرضى يلقى حتفه، كانوا يحملونه على عجلة اليد إلى محرقة الجثث. وفي الأسابيع التالية مات أناس آخرون بأمراض أطلقوا عليه اسم أمراض نووية، ولوكيميا، وهشاشة العظام، الخ. ونشر الناس الذين نجوا من الموت بالأمراض النووية الخوف بين باقي السكان، لأنهم كانوا كانوا ضعاف البنية، ويتصرفون كالمجانين. واعتقد العديد من الناس فيما بعد أن ألقاء الأمريكان لقنبلة نووية كان تصرفًا وحشيًا لا داعي له، خاصة في نهاية الحرب. لكن الاستراتيجيين العسكريين قالوا إنه لو لم يفعلها الأمريكيون، لفعها آخرون غيرهم، لأنه كان يجب أن يجربها أحدهم يومًا ما في الواقع، حتى يحدث في العالم توازن للرعب، يضمن عدم اندلاع حرب عالمية ثالثة. واخترع الأمريكيون في عام 1944 دمية متحركة بحجم الإنسان الطبيعي، واطلقوا عليها اسم روبرت. كان روبرت يرتدي ملابس تشبه ملابس المِظليّ، وكان يحمل الكثير من القنابل اليدوية والمواد المتفجرة. وكان الأمريكيون يلقون به من الطائرات خلف خطوط الأعداء. وعندما كان الألمان أو حلفائهم يرون روبرت وهو يطير فوق الأرض، كان يهرولون نحوه، وما أن يسقط روبرت على الأرض، ينفجر، ويقتل كل من تجمع حوله. واخترع الألمان في عام 1918 مدفعًا، أطلقوا عليه اسم بيرتا السمينة. وكان يطلق طلقات لمسافة 128 كيلومترًا. وفي عام 1944 اخترعوا مدفعًا أوتوماتيكيًا، وسموه WERGELTUNGSWAFFE.

بلغت سرعته خمسة آلاف وثمانمائة كيلومترًا في الساعة. كان من المفترض أن يؤمن المدفع النصر المبين للألمان. وفي عام 1947 اخترع الأمريكيون طائرة أسرع من الصوت. واخترع الروس في عام 1957 قمرًا صناعيًا، وأرسلوا في عام 1961 أول أول إنسان إلى الفضاء. وفي عام 1969 أرسل الأمريكيون ثلاثة رواد فضاء إلى القمر، وعندما هبط أول رائد فضاء على أرض القمر عبر

درجات سلم السفينة، قال جملته التاريخية: إنها خطوة صغيرة للإنسان، لكنها قفزة ضخمة للبشرية. وكان العقيد السابق المسؤل عن الوحدات الخاصة في الجيش الألماني شوتز شتافيلن هو كبير المهندسين في البرنامج الفضائي الأمريكي. وهو الذي اخترع في عام 1944 المدفع الأتوميايتكي فيرجل تونجس واف.

ونشأت لاحقًا خلافات حول إن كان رائد الفضاء هو من فكر في تلك الجملة، أم ان أحد المتخصصين هو من أعدها له ليلقيها على الجماهير. وكان المدفع الاتوماتيكي فيرجل تونجس واف يُنتَج في معسكر الاعتقال بمدينة دورا. وتابع 528 مليون مشاهدًا هبوط الهبوط على القمر في بث مباشر على شاشات التلفزيون. وقال السياسيون والمتخصصون في التفاعل مع الجماهير إنها خطوة هامة نحو التواصل العالمي وتحقيق العلاقات الانسانية الأعلى قيمة بين البشر.

وقام علماء الفيزياء بعد الحرب العالمية الثانية بإعادة تقييم نظرية النسبية. واخترع علماء الرياضيات نظرية المعلومات التي كانت رائدة، حيث نحّت المجالات الدلالية جانبًا، وتعاملت مع المعلومات بعيدًا عن مضمونها. وقال بعض علماء الرياضيات وعلماء الفلك إن المعلومات من العناصر الجوهرية للكون، وأن تنظيم الكون هو نتيجة لتحول العلاقة بين الطاقة والمعلومات من ناحية، وبين المعلومات والمادة من ناحية أخرى. وقال الفلاسفة إن مصطلح المعلومات هو في الأصل مصطلح فلسفي، وهو يعني وضع الوجود في أحد الأشكال، ودائمًا ما يظهر له محتوى ما. لكن هذا المحتوى في حد ذاته لا قيمة له، سوى الحركة التي ينطوى عليها في نفسه. لكن هذه الحركة يمكنها في الوقت ذاته التواجد خارج الشكل. وتساءلوا إن كان غياب المعنى في المعلومة لا يتعلق بغياب معنى للتاريخ. وقال بعض علماء الرياضيات إن نظرية النسبية أضافت إلى أسس الرياضيات نظرة جديدة للعالم، وأنه بنظرية المعلومات اكملت تلك الأسس بطريقة منطقية. لم يقبل النازيون بنظرية النسبية في البداية، وقالوا إنها ليست إلا حيلة جمالية وماهرة من اليهود الذين أرادوا الإضرار بالشعب الألماني. وقال الشيوعيون إن الطبقة البرجوازية اخترعت نظرية النسبية لأنها أرادت أن تثبت أن النسبية علم في حد ذاته، وبذلك تشكك في الشيوعية التي تأسست على قواعد علمية راسخة.

كانت الحرب العالمية الأولى وطنية وقومية، وآمن الناس كثيرًا بحب الوطن، والروح القومية، والنصب التذكارية للجنود الذين سقطوا في الحروب. وبدأ الناس بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية التي سُميت بالحرب الحضارية يفكرون طويلًا في مفهوم الوطن وليس مفهوم الحضارة. وصار لكل وطن هويته الخاصة. كان الانجليز أكثر برجماتية. كانت السيدات الانجليزيات تتمتعن بسيقان طويلة، والايطاليات بثديين كبيرين. وكان الرجال الإيطاليون مَرِحين، بينما كان الألمانيون يهتمون كثيرًا بالاجراءات الصحية، وتعوذهم روح الدعابة. كان الأيرلنديون مدمنين شرب الكحول، والاسكتلنديون يعشقون السير على الأقدام، وكان الفرنسيون متكبرين، واليونانيون معقدين. وكان التشيك جبناء، والبولنديون سكارى، والإيطاليون صاخبين، والبلغاريين متخلفين، والأسبان كئيبين، والمجريون متعالين.

وكان النحاتون والمعماريون سعداء بوفرة العمل. وكان الفرنسيون لديهم SAVOIR VIVRE وكان الانجليز يحبون FAIR PLAY. وكان الأطفال يقفون طويلًا أمام النصب التذكارية في مختلف المناسبات ليقولوا إن ذكريات الحروب ستظل حية إلى الأبد، وأن الناس يجب أن تفكر في هذا الأمر. وقال علماء الانثروبولوجيا إن النصب التذكارية أفضل من المتاحف ودور الوثائق في التفكّر في الأمر، لأنها تحيل الأمر إلى الذاكرة، وليس إلى التاريخ، وأنها تنعش الذاكرة. في حين التاريخ يفقد الذكرى الحية شرعيتها، ويجعلها ساكنة عبر الزمن. وقال المؤرخون إن النصب التذكارية تسمح بتصنيف زكريات المجتمع، وتنظيم الذاكرة الجمعية، ومحاربة النسيان بصفة عامة، ونسيان أمر محدد بصفة خاصة. وهذا هو الأسلوب الذي يسمح في الوقت نفسه بخلق شكلًا آخر من النسيان. وقال الفلاسفة إن النسيان أيضًا يمكن أن يكون هيكليًا. كانت النصب التذكارية توضع في أماكن مختلفة؛ في الأماكن العامة، وفي الطبيعة، وعلى جانبي الطرق، أو في ساحات القتال. وقال علماء الأنثروبولوجيا إن وضع النصب التذكارية في الأماكن المختلفة أدي في القرن العشرين إلى تنظيم جديد للمكان الرمزي، وأن تنظيم المكان يعتبر قاعدة الهوية الفردية، والجمعية في المجتمع، ويُعد أيضًا مؤسسة اجتماعية، ونموذج متطور، وشرط أساسي لكل أحداث التاريخ. كان كل من يقف أمام النصب التذكارية يشعر أنه يشارك الجنود وحلفائهم، والسجناء في معسكرات الاعتقال جزءًا بسيطًا من حياتهم ومن مماتهم. وقال بعض المؤرخين إن النصب التذكارية مثل قوقعة على شاطيء البحر وقت انحسار الحياة أو الذاكرة، أو أنها مثل دودة الأرض القتيلة ومازالت بها بقايا حياة. ليست بالحياة الحقيقية، لكنها حياة رمزية.

فقد نجت إحدى السيدات اليهوديات من الحرب فقط لأنها كانت تعزف على الكمان فوق رصيف القطار بمدينة شتروتهوف أنشودة من أوبريت الأرملة السعيدة.

كما حلقوا شعور الرجال والنساء، ووزعوا عليهم بطاقات دخول، وأخبروهم أنهم يجب أن يظهروها عند خزينة حمامات الاستجمام. وفي عام 1917 كتب أحد الجنود الإيطاليين في رسالة لأخته، يقول فيها: أشعر يومًا بعد الآخر باني أصبحت أكثر إيجابية. ونظم المواطنون بعد الحرب في الدول التي احتلتها ألمانيا حملات ضد عملاء الدول الأخرى، والخونة، وغيرهم. كما حلقوا شعور النساء اللواتي مارسن الجنس مع الألمان. وحدث أن عاد أحد سجناء معسكر الاعتقال إلى بيته بشعره الحليق، ثم توجه إلى حفل راقص من صديقة شقيقته التي قص مواطنو بلدتها شعرها، لأنها مارست الجنس مع المستعمرين الألمان. رقصا معًا، وأسندا رأسيهما إلى بعضهما، الأمر الذي استفز أناس آخرين واعتبروه غير مقبول، وشاذ. كان الأسبان يرقصون الفلامنجو، وكان الغجر تغلب عليهم نظرة عابسة، وكان الروس متكبرين، والسويسريون براجماتيين، وكان اليهود مغرورين، والفرنسيون مرحين، والانجليز متكبرين، والبرتغاليين متخلفين. ولكن مع تطور المجتمع الاستهلاكي ووسائل الاتصال صارت حياة سكان أوربا تتشابه بالتدريج. واعتقد بعض علماء الاجتماع وعلماء التاريخ أن فكرة الوطن قد تم تجاوزها، وقالوا أيضًا إن أكثر ما يميز المجتمع الأوربي المتقدم هو العولمة، وأنه لا وجود لما يسمى بالألمان، ولا الغجر، ولا السويديين. فهذا ليس إلا استعراض للذات في ظل القوالب الاجتماعية المبتذلة، والحكام المسبقة. لكن بعض علماء الاجتماع اعترض على هذا التوصيف، وقالوا إنه مع تطور المجتمع

الاستهلاكي ووسائل الاتصال فقد الناس يومًا بعد يوم غالبية نقاط الانطلاق، وصارت هناك ضرورة ملحة لوجود مجتمع قومي أكثر من أي وقت مضى. وصارت القوالب المبتذلة ضرورية للحفاظ على الذاكرة الجمعية والتاريخية، والتي بدونها قد يفقد المجتمع الأوربي وحدته الثقافية، لأن لأن الوحدة لا يمكنها التواجد بصورة متباينة العناصر. كما أن الذاكرة الجمعية هى تفاعل توافقي بين الماضي والحاضر، بين القوالب المبتذلة والأحكام المسبقة، وأن أهم ما يميزها هو أنها تتقادم ببطء أقل من التاريخ، ومن الاختراعات التقنية الحديثة، وما شابه. وهى تمثل آخر المجالات الأكثر جاذبية، والتي يتم فيها الحفاظ على الهوية الاجتماعية. وقال علماء علم الأعراق والأنثربولوجيا إن للتاريخ شكلان، الأول هو أنه ملك للمجتمعات التي تريد استمرار الحياة في ظل وجودها الرمزي، والثاني هو ملك للمجتمعات التي تستمد الأحداث والطاقة من تاريخها. وقد اندرجت المجتمعات الغربية تقليديًا إلى النمط الثاني، غير أنه في الوقت الحالي يمكن إدراجها في النمط الأول. وقال الفلاسفة إن سرعة إيقاع التاريخ التي حدثت في القرن العشرين أدت إلى حالة من اللامبالاة بالوقت، والى اختفاء التاريخ بصورته التقليدية. وإن كانت هناك ضرورة إلى ظهور شكل آخر للتاريخ، فمن الضروري إبطاء إيقاع التاريخ. وطالب البعض إضافة حقوق الوقت الانساني إلى إعلان حقوق الإنسان. وظهرت فكرة إقامة نصبًا تذكاريًا للجنود لتخليد ذكراهم أثناء الحرب عندما أدرك حكام الأقاليم أن قائمة الجنود الذين ماتوا في الحرب والتي كانت معلقة على حوائط مباني البلدية تبدو إدارية تمامًا، وجافة، وتتخذ طابعًا رمزيًا. وكانت تقام النصب التذكارية للجنود بعد انتهاء الحرب في الدول المنتصرة والمهزومة على السواء. وفي الدول المنتصرة كانوا يقيمون النصب التذكارية للاحتفال بالنصر والتضحية، وفي الدول المهزومة كانت ترمز إلى التضحية والشجاعة. ونادي أحد خبراء العلوم السياسية الأمريكيين في عام 1989 بنظرية نهاية التاريخ. تقول النظرية بأن التاريخ انتهى، لأن العلوم الحديثة والوسائل التقنية تمكن الإنسان من حياة رغدة، وأن حالة الرفاهية العامة هذه هى ضمانة الديموقراطية وليس العكس كما اعتقد التنويريون أو الإنسانيون من قبل. وصار المواطن مستهلكًا، والمستهلك مواطنًا، وصارت جميع أشكال المجتمع تتطور نحو الديمقراطية الليبرالية. وهذه الديمقراطية الليبرالية تؤدي بدورها إلى اختفاء جميع أشكال الحكومات الاستبدادية، والى حرية سياسية واقتصادية، وإلى المساواة، وظهور عهد جديد في تاريخ البشرية، لكنه لن يكون عهدًا تاريخيًا. لكن العديد من الناس لم يعرف بهذه النظرية، وواصلوا صناعة التاريخ، وكأن شيء لم يحدث.